مواقف الشـــــعوب
إزاء صراع الخارجين
مع الدولـــــة

د / انس هارون عبد المجيـــد

اولا : المحاور الرئيسية لمناقشة
مواقف الشعوب

★ المحور العقائدى
★ المحور العسكرى
★ المحور الاجتماعى
★ المحور المكانى أو الجغرافى

ثانيا : الأسباب التى أدت لتبنى
الشعوب لهذه المواقف

١ ـ المخلفات الاجتماعية للصراع
٢ ـ المعاناة الاقتصادية :
(أ) سياسة التجويع ٠
(ب) المكوس والإتاوات ٠
(جـ) الحرب الاقتصادية ٠

أولا : المحاور الرئيسية لمناقشة مواقف الشعوب :

★ المحـــور العقائدى ٠

★ المحـــور العسكرى ٠

★ المحـــور الاجتماعى ٠

★ المحور المكانى أو الجغرافى ٠

انصبت دراسات أغلب الباحثين الذين تعرضوا لصراع الدولة مع الخارجين فى بحوثهم فى البحث عن صور المساجلات والمواجهات العسكرية والسياسية وأسباب النصر والهزيمة والمواقف العقائدية والسياسية لطرفى الصراع . فى الوقت الذى خلت فيه أغلب هذه الدراسات من التعرض لقضـــية الشعوب ومواقفها .

على أننا يمكننا أن نتعرض لمجموعة من الأســـئلة فى إطار تلك القضية من أهمها : هل كانت شعوب العـــالم الاسلامى فى تلك الفترة لها مواقف إزاء ذلك الصراع الذى يدور بين ظهرانيهم ؟ ولمن كان تأييدهم ؟ وهـــل كان ذلك التأييد على مستوى واحد لكل الحركات أم لبعضها دون البعض الآخر ؟ وهل توجه تأييد الشعوب للدولة فى بعض الأحيان ؟

ومن هذا المنطلق تكونت فكرة هذ الدراسة والتى حصرت أهم مواقف الشعوب إزاء صراع الخارجين مع الدولة فى اربعة محاور رئيسية : عقائدى وفكرى واجتماعى ومكانى أو جغـــرافى .

وانتهت هذه الدراسة بذكر أهم الأســـباب التى ادت لتبنى الشعوب لمثل تلك المواقف المتباينة .

المحـــور العقـــائدى :

عند مناقشتنا لقضايا الفكر والتبعية المذهبيـــــــة والعقائدية أعتقد أن الأمر سيختلف اختلافا بينا عن مناقشة قضايا الحرب والتبعية العسكرية حيث اننا يمكننـــا فى قضايا الحرب التصنيف السريع الواضح لجموع المقـاتلين والمنحازين عسكريا لجبهة ما ٠

أما فى قضايا الفكر فإن الأمر سيختلف حيث يصعب متابعة تصنيف الأعضاء والأتباع وأعدادهم ومدى انتمائهم فى ظل ظروف متغيرة مع ما يصاحبها من تنقل وترحال سواء كان هذا التنقل نابع من سياسة الفرقة ورغبتها أو بحثـــا عن الأمان وبعدا عن الاضطهاد السياسى والفكرى الذى يمكن أن يمارس ضد أبناء تيار معين فى ظل ظروف معينة خاصة أو مستحدثة كتغير أهواء الخلفاء أو انتماءات الخلفـــــاء أنفسهم بتبعيتهم هم أنفسهم لتيارات معينـــة يعملوا على نشرها وضرب غيرها من تيارات ومذاهب أو أفكار ، وبنـاء عليه فإن الفرقة الواحدة قد تمر بظروف متباينة من هـــذه التبعية الفكرية والانتماء الشعبى لها حسب مساحة الحرية الفكرية التى يمكن أن يكفلها كل خليفة وحسب مجمـوعة الظروف والملابسات المحيطة سواء كانت فكرية أو سياسـية أو حتى اقتصادية ٠

والناظر لحركة الاعتزال يستطيع أن يستشعر بسهولة

مدى الجهد الذى بذلته الحركة فى سبيل الحصول على التأييد الشعبى والانتشار الجماهيرى ، حيث لم تترك الحركة أى فرصة تسنح لها إلا واستغلتها والغريب فى ذلك أن المعتزلة فى سبيل ذلك الانتشار أوجدوا الكثير من صور التطور فى الممارسات والأساليب التى كانت مجهولة وغير مطروقة من أبناء المجتمع الاسلامى فى ذلك الوقت ، وأول ما يصادفنا فى ذلك هو توظيف المسجد • حيث لا يخفى أن جموع المسلمين لابد وأن ترتاد المسجد لصلاة الجماعة يوميا ومن ثم يكون هذا التجمع الشعبى فرصة سانحة لإلقاء بذور الأفكار والدعوة لها وشرحها بل وقيام المناظرات التى تخلق فى النفوس على الأقل محاولات التفكير واعمال العقل فيما يقال ، لتحدث بعد ذلك عملية التبعية الفكرية خاصة اذا تكررت هذه المواقف أتحدث فى النهاية ما يشبه غسيل المخ فتتوجه جموع الناس لهذا الفكر لتأخذه بتلقائية •

وإذا كان المعتزلة قد وظفوا المسجد لهذا الدور فى الحصول على التأييد الشعبى من جموع الناس (١) الا أنهم كانوا أوسع وأعمق نظرا عندما شغلوا بقضية النشأ وعملوا على أن يوجهوا جهودهم لتربية ذلك النشأ منذ البداية على هذا الفكر (٢) •

---

(١) الكندى : أبو عمرو محمد بن يوسف المصرى ت ٣٥٠ هـ : الولاة وكتاب القضاة ص ٤٤٧ طبعة الآباء اليسوعيين - بيروت ١٩٠٨ م

(٢) ترجمة الامام أحمد بن حنبل ص ٥١ دار الوعى حلب نقلا عن تاريخ الاسلام للحافظ الذهبى • أحمد جاب الله : التربية والتعليم ص ٥٢ مقال لمجلة دراسات فى الحضارة الاسلامية ج ١ - ١٩٨٥ م الهيئة المصرية العامة للكتاب •

ولا يخفى أنها فلسفة خطيرة كفيلة بقلب موازين القوى الفكرية فى أى مجتمع فى فترة وجيزة بحيث يمكن فى خلال هذه الفترة الوجيزة صبغ مجتمع بأسره بتيار فرقة معينة لو وجهت هذه الفرقة جهودها للصبيان والصغار ·

وقد كان ! فقد وجه المعتزلة جهودهم لتعليم الصبيان نفس هذا الفكر بحيث ينشأ الطفل مقتنعا به مؤمنا بقياداته ومتبعا لها تحت أى ظرف من الظروف ·

وإذا كانت الجهود مع الكبار لم تثمر أو كانت ثمرتها ضعيفة فالإمساك بالجيل القادم فرصة سانغة يحسن استغلالها ·

وتجدر الاشارة ازكاء فكر المعتزلة الذى استغل كل فرصة لتوجيه الرأى الشعبى وخلق تيار مؤمن به ويعمل له · على أن هذا الفكر لم يقصر نفسه عللى أبناء الطبقات الشعبية وكفى وإن كان هذا مهما إلا أنه استطاع أن يغزو دار الخلافة نفسها من نفس المنظور السابق الا وهو منظور التعليم وتربية النشأ نتوجهت يد الاعتزال لشخصية المأمون نفسها وهو فى سن التعليم والتربية فحوته · مما كان سببا فى اقتناعه بهذا الفكر ، ولا يخفى أنه قام بدوره بعد ذلك فى صبغ المجتمع كله بصبغة فكر الاعتزال وحقيقة فإن ما سبق من حديث يفهم منه أن فكر الاعتزال ألقى خيوطه جهة التيار الشعبى فى محاولة لاحتوائه ولكنه على ما يبدو لم يوفق فى هذا الاتجاه فعمد الى سياسة النفس الطويل بتبنى فكرة تعليم النشء لخلق جيل

جديد كامل يؤمن بهذا الفكر · وكان المأمون أحد أبناء هذا الجيل الذى غزاه فكر الاعتزال وحوته يده (٣) ·

على ان هذا الحديث يجرنا لسؤال هام الا وهو هل اثمرت جهود المعتزلة فى خلق تيار شعبى يؤمن بهذه الافكار ويدعو لها ؟ والحقيقة تؤكد ان المعتزلة فشلوا فى ذلك بدليل ما وصح إبان محنة القول بخلق القرآن حيث تشكل من طبقات الشعب على مختلف اشكاله ما يشبه الاغلبية الصامتة التى رفضت هذا الفكر ولفظته ولكن للأسف الشديد (٤) فى صمت وكيف تستطيع المجاهرة بذلك الرغض وسيف الدولة مسلط على الرقاب لاجتثاث الرؤوس والأرزاق فمن لا يؤمن بهذا الفكر لا رزق له فى الدولة ولا عمل (٥) ولا أدل على ذلك من هذه الجموع التى كانت ترغب فى حضور دروس أحمد بن حنبل بعد عفو الدولة عنه مما دعا الدولة لان تأمره باجتناب التجمعات وعدم القاء الدروس (٦) وكذلك فإن الجموع التى حضرت جنازته لهى خير دليل على فشل فكر الاعتزال فى أن يستطب جموع الناس له أو يحتويهم ·

---

(٣) فى رايى انه من الواجب تاريخيا فتح ملف الصراع بين الامين والمأمون للبحث عن يد المعتزله فى هذا الصراع وهل كان لهم دور فى ايجاده واذكاء ناره بحثا عن اقصاء الأمين والاتيان بالمأمون صاحب فكر الاعتزال قضية هامة جدا ·

(٤) ترجمة الامام محمد بن حنبل ص ٣٦ ، ٣٧ عن تاريخ الاسلام للحافظ الذهبى ·

(٥) ابن الأثير · الكامل جـ ٥ ص ٢٢٢ ·

(٦) ابن الاثير · الكامل جـ ٥ ص ٢١

ولا أدل على حقيقة الموقف الشعبى المعارض لفكر الاعتزال والرافض له عامة وفى القول بخلق القرآن خاصة مما صرح به أحمد بن أبى دؤاد نفسه عندما قام أحد أتباع المعتصم يعرض عليه أن يقطع رأس الامام أحمد أمام جماهير الناس التى شهدت هذه المحاكمة التاريخية • حيث قال بن أبى دؤاد : « لا يا أمير المؤمنين لا تفعل فإنه ان قتل أو مات فى دارك قال الناس صبر حتى قتل فاتخذوه إماما وثبتوا على ما هم عليه » (٧) •

وهى كلمات تؤكد المبايعة الجماهيرية الصامتة للإمام أحمد فى موقفه والرافضة كل الرفض لفكر الاعتزال ولكنه كما قدمت الرفض السلبى • حتى أن جماهير المسلمين كانت تؤدى صلاة الجماعة خلف أئمة المعتزلة وتعود لتعيد صلاتها مرة أخرى فى المنازل (٨) •

على أن الدولة نظرا لتتبع الرأى العام الشعبى لقضية المحنة أخرجت بن حنبل أمام جماهير الناس بعد أن أحضرت أقاربه وجيرانه وأهل الحل والعقد وأشهدت على خروجه حيا من دار الخلافة (٩) بعد ابتلائه بمحنة القول بخلق القرآن وما لاقاه فيها من صنوف العذاب وحقيقة فان الدولة استطاعت أن توقف غمار ثورة عارمة لو قتل بن حنبل فى محبسه •

---

(٧) ترجمة الامام احمد ابن حنبل ص ٤٨ نقلا عن تاريخ الاسلام للحافظ الذهبى •

(٨) نفس المرجع ص ٥١ •

(٩) نفس المرجع ص ٥٠ •

والدارس لتاريخ الحركات الفارسية يلفت نظره تنوع مواقف الإقبال الشعبى على هذه الحركات حسب ظروف الزمان والمكان والاتجاه الفكرى وغيرها .

فالبابكيه فشلت فى الالتحام بالجماهير فى حواضر الدوله التى تتسم بالتواجد العلمى والثقافى والحضارى المصبوغ بالصبغة الإسلامية ولكنها عندئذ طورت نفسها ولم تقف مكتوفة الأيدى أمام فقدان التبعية الجماهيرية والانتشار الشعبى فى هذه الأوساط فاخترعت حيلة خطيرة استطاعت من خلالها ان تحقق الانتشار الشعبى والتواجد بين الجماهير .

وتمثلت هذه الحيلة فى اللجوء لأطراف الدولة العباسية حيث الفراغ العلمى والثقافى وغياب الصبغة الاسلامية هذا بالاضافة الى حداثة الاسلام فى هذه المناطق ووجود بقايا الديانات القديمة بين جموع الناس فى هذه الأماكن .

ومن ثم حققت البابكية فى هذه المناطق انتشارا سريعا وواضحا ووجدنا حركة انضمام ضخمة من أهالى الجبال بناحية أذربيجان (١٠) وهمذان (١١) وأصبهان (١٢)

---

(١٠) أذربيجان : بالفتح ثم السكون وفتح الراء وكسر الباء الموحدة وياء ساكنة وجيم وقيل معناها بيوت النار . ومن أشهر مدنها تبريز ، خوى ، سلماس . ياقوت الحموى : معجم البلدان ج ١ ص ١٢٨ .

(١١) همذان : بالتحريك وذال معجمة وآخره نون . كان فتح همذان

=

وماسبذان (١٣) مع تنوع (١٤) الأجناس لجموع الناس التى انضمت لهذه الحركة فانضم الكرد والأرمن وغيرهم ، (١٥) ٠

واستطاع بابك أن يعقد عدة اتفاقيات مع تيوفيل امبراطور الروم لضمان الاستقرار والانتشار فى تلك المناطق مع امكانية التوجه لتقسيم الجبهات اضعافا لجانب المسلمين ٠

وعملت الحركة على عقد الاتفاقيات مع بعض قواد الدولة العباسية (١٦) وبعض(١٧) ولاتها تحقيقا للانتصارات وجلبا للأتباع وتضاء على الدولة ، إذ لا يخفى أن تحقيق الانتصارات مع ما حققته من نتائج عسكرية ومادية مهمة له أثره الكبير فى جموع الناس وعامتهم الذين يأخذون بمثل هذه

ف جمادى الأولى على رأس ستة أشهر من مقتل عمر بن الخطاب رضى الله عنه وكان الذى فتحها المغيرة بن شعبة ٠ ياقوت الحموى : معجم البلدان ج ٥ ص ٤١٠ ٠

(١٢) اصبهان : منهم من يفتح الهمزة ومنهم من يكسرها : مدينة مشهورة من أعلام المدن وأعيانها ٠ وهى اسم للاقليم بأسره وهى من نواحى الجبل ٠

ياقوت الحموى : معجم البلدان ج ١ ص ٢٠٦ ٠

(١٣) ماسبذان : بفتح السين والباء الموحدة والذال معجمة وآخره نون ، فتحت على يد ضرار بن الخطاب عام ١٦ هـ ٠

ياقوت الحموى : معجم البلدان ج ٥ ص ٤٠ ٠

(١٤) الاسفرائينى : عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادى ت٤٢٩هـ الفرق بين الفرق ص ٢٠١ ط بيروت ١٩٨٥ م ٠

(١٥) قدورة : د/زاهيه - الشعوب واثرها الاجتماعى والسياسى فى الحياة الاسلامية فى العصر العباسى الأول ص ٢٤٥ ط/١ بيروت

(١٦) الطبرى : تاريخ الامم والملوك ج ٧ ص ٢٥٣٠

(١٧) نفس المرجع والجزء ص ٢٨٣ ٠

الانتصارات ويستشعرون أن الحق والاستقرار والأمان مع هؤلاء المنتصرين. وحقائق التاريخ تؤكد أن البابكية استطاعت تحقيق الكثير من الانتصارات وقضت على الكثيرين من أمهر وأشهر قواد الدولة العباسية (١٨) ، كل هذه الأمور كانت سببا فى كثرة اتباعها وانتشارهم وتواجد التأييد الشعبى والتبعية الجماهيرية بين جموع الناس .

ولا أدل على مدى نجاح البابكية فى بسط سيطرتها على جماعات ضخمة من الناس ومن تحقيق قدر مذهل من الانتصارات العسكرية والتبعية الجماهيرية من بقائها أى حركة بابك - تتخر فى عظام الدولة العباسية وفكرها مدة تربو على العشرين عاما فى ظل قيادة بابك الخرمى .

وبقاء هذه الحركة بعد القضاء عليى بابك لفترات طويلة كما ذكر البغدادى (١٩) والغريب أن لهم مساجدهم يؤذنون فيها ويعلمون أولادهم القرآن . لكنهم لا يصومون ولا يصلون ولا يرون جهاد الكفرة .

ونستطيع أن نضرب مثالا آخر للحركات الفارسية بحركة المقنع فإنه بالرغم من أن المقنع من مرو إلا أن حركته لم تلق الانتشار الشعبى والتبعية الجماهيرية إلا من أهل الجبال

---

(١٨) من الممكن مراجعة أحداث بابك فى الطبرى حتى سقوط مدينة (البذ) جـ ٧ ص ٢٤٢ .

(١٩) الفرق بين الفرق ص ٢٠٢

والأطراف فى منطقة جبل ابلاق وقوم من الصفد والترك (٢٠)

وكذلك فإن الحركة استطاعت أن تبتعد عن أرض التجمعات الثقافية والدينية وأن تنتشر بين طبقات العوام وجهال الناس وأصحاب الحرف البسيطة خاصة إذا اقترن هذا الجهل بما كان يصنعه المقنع من خوارق وحيل هندسية خالت على الكثيرين من هؤلاء العوام • ومن ثم فقد وجدت الحركة من يعينها ويتشرب فكرها ، ولا أدل على ذلك من بقاء هذه الحركة مدة تربو على الأربعة عشر عاما وهى تقاتل جند الخلافة وتقتل من أبنائها وقوادها الكثيرين •

ومما يلفت النظر أن الحركة بالرغم من القضاء على قائدها وحصارها فى قلعة كش واستئصالها إلا أن جموع المتبعين لها والذين بقوا حتى عصر الاسفرائينى البغدادى كانوا كثرة لا يستهان بها وتنتشر بينهم عادات المقنع من استحلال الميتة ، وأكل الخنزير ، والحرية الجنسية ، وخلاف ذلك بالرغم من وجو المساجد فى قراهم (٢١) •

كل هذه الأمور تؤكد أن المقنعية استطاعت اغواء الكثيرين من عامة الناس وبسطائهم وحققت انتشارا شعبيا لا يستهان به بدليل بقاء هذه الأجيال فى قرى خاصة بهم لفترات متأخرة تؤمن بهذا الفكر وتعيش به فى ظل الحكم والحكومة الاسلامية •

---

(٢٠) نفس المرجع ص ١٩٥
(٢١) الاسفرائينى : الفرق بين الفرق ص ١٩٦

ونستطيع ان نقول عن حركة المازيار انها تعد امتـدادا لحركات الفارسية من بابكية ومقنعية وغيرهما واستطاعت أن توجد الكثير من الأتباع فى مناطق جرجان (٢٢) وعاشوا هناك فترات طويلة حتى بعد القضاء على مازيار فى عهـد المعتصم وصلبه ، بسر من رأى ، بجوار بابك الخرمى إلا أن جموع متبعيه من أهالى هذه المناطق بقوا يظهرون الاسـلام ويبطنـون الكفـر (٢٣) .

---

(٢٢) جرجان : بالضم وآخره نون ، مدينة عظيمة بين طبرسـتان وخراسان ويقال ان أول من أحدث بنائها يزيد بن المهلب بن ابى صفرة . ياقوت الحموى : معجم البلدان ج ٢ ص ١١٩ .

(٢٣) الاسفرائينى : الفرق بين الفرق ص ٢٠٢ .

المحـور العســـكرى :

يعتبر المحور العسكرى محكا رئيسيا يبين الى أى مدى تباينت مواقف الشـــــعوب فى نظرتها للصراع الدائر بين الدولة والخارجين عليها بمختلف تياراتهم ومذاهبهم ·

وفى رأيى أن مناقشة هذا الأمر يستوجب الفصـــل بين هذه المواقف المتباينة للتيار الشعبى · وذلك بعرض التيار المؤيد للحركات منفصلا عن التيار المعـــارض خاصة إذا دار الحديث عن الصراع العسكرى ·

ومن أهم صور التيار المؤيد ما ذكره محمد النفس الزكية صراحة إبان قيامه بحركته فى المدينه ووسط جماهيرها فى إحدى خطبه من أنه ما خرج بين ظهرانيهم إلا بعد ان اخذت له البيعة فى كل أمصار الدولة العباسية كما كان يركز على خراسان (معقل التأييد الشيعى الجارف للعباسيين) وكان يقول : (أهل خراسان على بيعتى) (١) إلا أن الروايات التاريخية تذكر أن المنصور أشاع أنه هو الذى أمر بمكاتبة محمد حتى يغرى بالخروج بعد ان يستشعر بمدى التأييـد الجارف الذى ينتظره فى حالة خروجه ، يؤكد ذلك إشـــاده

---

(١) البلاذرى : احمد بن يحيى بن جابر ت ٢٧٩ هـ · انســـاب الاشراف ج ٣ ص ١٠٦ تحقيق : محمد باقر المحمودى ج ١ - بيروت ·

المنصور بنفسه عندما سمع خبر خروج النفس الزكيـــــة بالمدينة لأنه هو الذى استطاع أن يخرج الثعلب من جحره ٠

وحقيقة فإن مجريات الأحداث وتطوراتها يفهم منها أن الموقف الشعبى فى المدينة تميز أو مر بمرحلتين :

الأولى : تلك التى كانت فى بدايات الثورة حيث تويلت بالتأييد الشعبى الجارف من جميع طبقـــات المجتمع فى المدينة وحصل خلالها قائد الثورة على بيعة مجتمع المدينة ٠

أما المرحلة الثانية فقد كانت عند مجىء عيسى بن موسى بقواته لضرب الثورة وحصار المدينة ، إذ حلل النفس الزكية من المدينة من بيعتهم فتوجهت الجموع الشعبية لسفوح الجبال تاركة المدينة للنفس الزكية وبعض كبار متبعيه وناصريه ٠

ونستطيع أن نلمح أهم صور التأييد والتعاطف الشعبى مع الخارجين فى حركة ابراهيم ابن عبد الله بن الحسن فى البصرة ، حيث استطاعت هذه الحركة أن تستـــــتولى على الكثير من مدن الخلافة العباسية وأن تصبح على وشك إسقاط الخلافة العباسية نفسها بفضل خطة ابراهيم التى كانت تعتمد على التكتلات الشعبية المتعاطفة مع هذه الحركة

فالملاحظ أن الخطة العسكرية كانت تعتمد على الاستيلاء

على ثلاثة من أهم حواضر الدولة العباسية فى تلك الفتـــرة وهى واسط (٢) والأهواز(٣) وفارس(٤) واستخدام التكتلات البشرية الشيعية بل وغيرها من المتخوفين والمجحمين فى هذه المناطق كعوائق توقف تقدم قوات العباسيين فى الوقت الذى يتمركز هو فيه على مشارف البصرة ويصبح من الواجب على العباسيين ان يمروا على هذه الحواجز ويسحقوا تحـــرك الثورة فيها قبل الاتجاه لابراهيم وحربه ٠

وحقيقة فإن المنصور كاد أن يبتلع الطعم فنراه يرسـل القوات للكوفة ثم واسط بقيادة عامر بن اسماعيل المسلمى وقوات أخرى للأهواز بقيادة خازن بن خزيمة ، إلا أن المنصور استطاع فى اللحظات الأخيرة أن يستوعب خطة ابراهيـم لتشتت قوات الخلافة فى حرب التجمعات الشعبية الشيعية فى حواضر المدن ، بحيث تتمكن قوات الشيعة بعد ذلك من هزيمة جيش المنصور فى البصرة عند اللقاء الأخير ويصبح سقوط بغداد لقمة سائغة فى يد ابراهيم وقواته ٠

---

(٢) واسط : تطلق على عدة مدن ولكن المقصودة هنا التى بين البصرة والكوفة لتوسطها بين البلدين ٠ ياقوت الحموى : شهاب الدين ابى عبد الله : معجم البلدان جـ ٥ ص ٣٤٨ ٠

(٣) الأهواز : جمع هوز وأصله حوز ٠ وهى اسم للكورة والبلد الذى يغلب عليه الاسم سوق الاهواز : ياقوت : معجم البلدان جـ ١ ص٢٨٤

(٤) فارس : ولاية واسعة من أهم كورها اصطخر واردشير فتحت فى أيام عمر واستكمل فتحها أيام عثمان رضى الله عنهما ٠ ياقوت ، معجم البلدان جـ ٤ ص ٢٢٧ ٠

ومن ثم فقد حرك المنصور قواته لابراهيم مباشرة بعد إيقاف القتال فى واسط والأهواز (٥) ٠

وللحقيقة التاريخية أسجل أن تباين التعاطف الجماهيرى على مستوى الخلافة العباسية فى تلك الفترة كاد أن يفقد الخلافة العباسية ذاتها وعرشها حيث أقبلت الجماهير على ثورة ابراهيم فى البصرة والأهواز وفارس وواسط والمدائن والسواد (٦) وأيحتها ٠

كما كانت مصر فى تلك الفترة مليئة بثورات العرب والقبط ، كما لا يستطيع احد ان ينكر مدى التعاطف الجماهيرى فى الشام لبنى امية ، وتباين التشيع فى الحجاز واليمن بين حب الصحابة وال البيت وبقايا الثورات القديمة ، ونظرة إجمالية للوضع فى تلك الفترة نستطيع أن نفهم منها إمكانية سقوط الدولة العباسية على يد حركة ابراهيم بن عبد الله بن الحسن ، حيث لم يتبق للعباسيين سوى خرسان بعد أن تشرذمت وتباينت رؤى القوى الشعبية والجماهيرية بصورة أصبحت كلها فى صالح الخارجين وضد الدولة ٠

---

(٥) ابن الأثير : ابو الحسن على بن الكرم ت ٦٣٠ هـ ٠ الكامل فى التاريخ جـ ٥ ص ١٧ ـ ط/٣ بيروت ٠

(٦) الطبرى : محمد بن جرير ت ٣١٠ هـ ٠ تاريخ الأمم والملوك جـ ٣ ص ٢٥٦ بيروت ٠

وفى حديث الطبرى (٧) عن ثوره يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب بالديلم (٨) ذكـــر صريح لرؤية جموع الناس الواضحة من الصراع تلك الرؤيه المؤيدة للحركه والمعارضة لدوله مع كل ما يمكن ان يحمله هذا من صور التنكيل والمطاردة لهذه الجموع فى حالة فشـــل الثـــورة ٠

وحقيقة فبالرغم من تطرف المكان وبعده ووجـــوده فى مناطق نائيه عن الثورة إلا آن هذا لم يمنع جموع الجماهير من التحرك ، لموقع تمركز الثورة فى الديلم ، لا فرق بين أبناء الامصار الرئيسيه او القرى الفرعية مما يشعرنا بمدى التأييد الشعبى الجارف لهذه الحركة ونستطيع أن نفهم ضخـــامة التـــأييد الشعبى فى موقف الرشيد الذى اغتم لهـــذه الحركة ورصد لها من الأموال والقـــواد الشىء الكثير وبات ينتظر انحسار خطرها بصورة تؤكد مدى قوة هذه الحـركة وخطورتها ٠ كما سجلت كتب التاريخ صور متعددة لفرحة الرشيد بانحسار خطر هذه الحركة عن طريق الصلح الذى أبرمه الفضل بن يحيى البرمكى مع يحيى بن عبد الله بن الحسن (٩) ، وبالرغم من عودة يحيى بن عبد الله مع الفضل ابن يحيى إلا أن جموع الجماهير لم تنقطع فى الإتيـــان

---

(٧)تاريخ الأمم والملوك جـ ٦ ص ٤٥٠ ٠
(٨) الديلم : أسم ماء لبنى عبس ٠ قال عنترة : زوراء تنفر من حياض الديلم ٠ ياقوت الحموى : معجم البلدان جـ ٢ ص ٥٤٤ ٠
(٩) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك جـ ٩ ص ٤٥١

ليحيى والسلام والدخول عليه (١٠) مما يؤكد فكرة التعاطف الشعبى والتأييد الجارف للثورة ولشـــخصية يحيى بن عبد الله .

ونستطيع أن نضيف لما سبق محاولات الحركات اكسب التعاطف الشعبى والحرص عليه ، وهى تعلم ما يمكن أن تقدمه الشعوب لحركات الخارجين خاصة عندما تقتنع بفكرة معينة فإنها تبذل فى سبيلها الغالى والرخيص وقد لاحظ هذا (حسين صاحب فخ) فنراه يتواعد مع أصحابه فى الخروج على الدولة فى موسم الحج (١١) آملا فى أن يكون لهـــذا التواجد الشعبى الضخم من جماهير المســـلمين دوره فى الاقتناع بحركته والانضمام إليها ومن ثم تسهل عملية إسقاط الدولة بعد ذلك بهذه الجموع الغفيرة من أبناء المسلمين .

واستطاعت حركات الموصل أن تجمع شمل العرب فى هذه البلاد بصورة لم تحدث من قبل واستحوذت على كل التعاطف الشعبى امام قوات العباسيين ، يؤكد هذا ساحات المعارك التى كانت أرضها المساجد والأسواق مع ما فيها من تواجد سكانى وبشرى (١٢) مما يؤكد إقبال سكان هذه المناطق على تأييد هذه الحركات والوقوف فى وجه الدولة على أن نفس هذه الأحداث تكررت مع أبو السرايا فى الكوفة (١٣) كمـا

---

(١٠) نفس المرجع والجزء والصفحة .
(١١) ابن الأثير : الكامل جـ ٥ ص ٧٥
(١٢) الديوجى : سعيد : تاريخ الموصل جـ ١ ص ٦٠ وما بعدها . العراق ١٤٠٢/١٩٨٢

لجأت الحركات فى بغداد عند تحركها للكرخ ، بحثا عن التأييد الشعبى وبعدا عن مناطق التمركز العباسى (١٤) .

وفى صراع الأمين والمأمون انحاز عامة الناس وجموع الشعب للأمين العربى ضد تزايد الوجود والتدخل الفارسى المتمثل فى المأمون وحركته وشهدت بغداد كيف وقفت جموع الناس بزعامة حركات العيارين والشطار والعوام فى وجه زحف قوات طاهر بن الحسين مع كل ما تملكه قوات طاهر من عدد وعدة وكيف صارت أركان بغداد من مساجد وكنائس وأنهار ودروب وقصور وأسواق أماكن للمعارك العسكرية الشعبية التى قادتها الجموع الشعبية من طبقة العوام على مختلف أشكالهم ، من طرار وسواط ونطاف ومن المعروف أن هذه الجموع هى الأقدر على خوض المعارك الشعبية (١٥) غير التنظيمية ومن ثم فقد بقوا حتى آخر لحظة فى صف الأمين وقوات الأمين ، حيث لم يكن أمامهم إلا انتفاض المدينة وما يسلبونه من قوات طاهر النظامية كمصادر تمويل لحركتهم الشعبية (١٦)

كما مثلت أجزاء المدينة من مبان وحوائط وأبواب صورة من أهم صور الحماية لهذه القوات الشعبية البسيطة ويذكر

---

(١٣) الطبرى : تاريخ الامم والملوك جـ ٧ ص ١١٧

(١٤) د/صالح أحمد . بغداد مدينة السلام الجانب الغربى جـ ٢ ص ٢٥ بغداد ١٩٨٥ م .

(١٥) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك جـ ٧ ص ٧١ .

(١٦) نفس المرجع والجزء ص ٥١ .

الطبرى (١٧) صراحة نوعية المقاتلين من هذه الجمـــــوع الشعبية فيقول : « وذلت الأجناد وتواكلت عن القتال إلا باعة الطريق والعراة وأهل السجون والأوباش والرعاع والطرارين وأهل السوق وأضاف إليهم الطبرى الهرش والأفارقة » ٠

وكان للتوجه الشعبى الرافض لبقـــاء قوات الأتراك الخاصة بالمعتصم أثره فى الانتقال لسامراء (١٨) وترك بغداد خاصة وأن بقاء هذه القوات قد يكلفهـــم الكثير من جراء محـــاولات الانتقام والاعتداء عليهـــم من قبـــل جمـــوع الناس فى بغداد ٠

وإذا كان ما سبق من حديث يدور حول ذكر التيـــار الشعبى المؤيد للخارجين فى صراعهم مع الدولة فإنى أود فى الصفحات التالية ان أتعرض للنقيض وهو الموقف الشعبى المعارض لحركات الخارجين ٠

وأول الأمثلة التى يمكن ضربها توجه الكثير من حركات الخارجين الى أطراف الدولة العباسية تاركين قلب الدولـة وأهم الأمصار ٠ ولا يمكن أن يفسر هذا إلا على أنه استشعار من قيادات هذه الحركات بمدى الرفض الشعبى لها فى هـذه المناطق وفقدانها لأرضية صالحة وقوية من التعـــاطف

---

(١٧) نفس المرجع والجزء ص ٥٢ ٠

(١٨) د/فريال مصطفى : البيت العربى فى العـــراق فى العصر الاســـلامى ص ٦٦ ، ٦٧ بغداد ١٩٨٣ م ٠

الجماهيرى يمكنها من المعايشة والتحرك وتنفيذ المخططات مع عدم الاضرار بها بالتبليغ أو الاشارة أو المصادمة ٠

على أننا لا نستطيع أن نغفل دور ملوك الأطـــراف فى إيواء هذه الحركات وشمولها بالرعاية والعطف والتمـــويل المادى والعسكرى خاصة وأن ملوك هذه الأطراف لم يقـــدم الكثيرين منهم فروض الطاعة للدولة مثل ملوك أسروشنة(١٩) وفرغانة (٢٠) ولم يحدث هذا إلا فى عصر ولاية المأمون على خراسان عندما استشعر بخطورة هذه الأطراف وإيوائهـــا لحركات الخارجين الفرس بالأخص (٢١) ووصل الأمر لحد الاصطدام العسكرى بين الدولة وملوك هذه الأطراف لإيقاف تأثير هؤلاء فى مجريات الأمور بإيوائهم لزعماء الخـــارجين وتمويلهم (٢٢) ٠

ويلاحظ أيضا أن حركة بابك الخرمى نظرا لتطـــرف أفكارها لم تستطع أن تعايش الوسط الجماهيرى فى الكور والأمصار ، لأنها وجدت كل مقاومة من أهل الامصـــار

---

(١٩) أسروشنة : مدينة بما وراء النهر بالفتح ثم السكون وضـم الراء وسكون الواو وفتح الشين المعجمة ونون ٠ ياقوت الحمـــوى : معجم البلدان جـ ١ ص ١١٧ ٠

(٢٠) فرغانه : بالفتح ثم السكون وعينه معجمة فى مدينة واســعة فيما وراء النهر ٠ ياقوت الحموى : معجم البلدان جـ ٤ ص ٢٥٣ ٠

(٢١) بارثولد : فاسيلى فلاديمير وفتش : تركستان من الفتح العربي الى الغزو المغولى ص ٣٢٣ ٠ ترجمة صلاح الدين عثمـــان هاشم جـ ١ الكويت ١٤٠١ هـ/١٩٨١ م

(٢٢) نفس المرجع والجزء ص ٣٢٤ ٠

الرئيسية لهذا الفكر الغريب الشاذ ، ومن ثم فقد لجـــأت أيضا لهذه الأطراف واستطاعت مع مجموعة أخـــرى من العوامل الجغرافية والمناخية وغيرها البقاء لفترة تربو على العشرين عاما وهى تحارب الدولة العباسية . على أن القائد الوحيد الذى استطاع أن ينتصر على هذه الحركة كان من نفس هذه الأماكن وهو أعلم بطبيعتها (٢٣)

وبالرغم من ظهور فرقة الخوارج فى أرض العراق إبان الصراع مع الامام على (رضى الله عنى) إلا أنها فى مسيرتها نجدها قد تمركزت فى أطراف الجزيرة العربية والشـــمال الأفريقى أكثر من أى مكان آخر وهى مناطق تبعد عن أماكن التجمعات الشعبية العامة وحواجز المدن الرئيسية فى دولة الخلافة .

ويمكننا أن نفهم من ذلك أن الخوارج وان كانوا قـــد وجدوا فى بدايات تواجدهم صورا من التأييد والتعـــاطف الشعبى الا ان ما لاقته الشعوب من أبناء هذه الحـــركات وما جرته هذه الحركات عليها من ويلات - على ما يبدو - الى غير ذلك من أسباب أفقد فرقة الخوارج عوامل التـــأييد والتعاطف الجماهيرى وحتم عليها اختيار الأماكن الخواء .

---

(٢٣) الأفشين : او حيدر بن كاوس من اسروشنه . الخضرى : الشيخ محمد . محاضرات تاريخ الأمم الاسلامية والدولة العباســـية ص ٣٣٧ مصر ١٩٧٠ م .

ونظرا لشراسة الخوارج فى القتال فقد استأثروا بجند الدولة العباسية فى الشمال الأفريقى بعد احجام المشاركة الشعبية بدليل أن أكبر حركات الخوارج حدثت عندما خلت أفريقية من الجند وذلك عندما توجه عمر بن حفص لبناء مدينة طبنة بأمر المنصور (٢٤) حيث انتفضت أفريقية فقتل حبيب بن حبيب المهلبى والى القيروان على يد أبى حاتم الأباضى واتجه الوليد بن طريف الشارى الخارجى الى أرمينية (٢٥) بعد فتكه بابراهيم بن خازم بن خزيمة بنصيبين (٢٦) من بلاد الجزيرة (٢٧) · ونظرا لغياب العنصر الشعبى وعوام الناس فقد تمكن الخوارج من فرض الحصار على عمر بن حفص فى القيروان حتى اضطر للخروج وقتال الخوارج فى قرة غير متكافئة وقتل على أيديهم (٢٨)·

ومن أوضح الصور التى سجلها التاريخ والتى تمثل عدم المشاركة الشعبية بل والإحجام التام والبعد الكامل عن

---

(٢٤) ابن الأثير : الكامل جـ ٥ ص ٣١ ·

(٢٥) ارمينية : بكسر اوله ويفتح ، وسكون ثانية وكسر الميم وياء ساكنة وكسر النون وياء خفيفة مفتوحة ·

اسم لصقع عظيم واسع فى جهة الشمال وقيل انها ارمينيتان الكبرى والصغرى وقيل ثلاث وقيل أربع ياقوت الحموى : معجم البلدان جـ ١ ص ١٦٠ ·

(٢٦) نصيبين : بالفتح ثم الكسر · مدينط عامرة من بلاد الجزيرة على حادة القوافل من الموصل الى الشام · اختلف فيمن فتحها من المسلمين والأصح عياض بن غنم عام ١٧ هـ عندما فتح الجزيرة · ياقوت الحموى : معجم البلدان جـ ٥ ص ٢٨٨ ·

(٢٧) الطبرى : تاريخ الامم والملوك جـ ٦ ص ٤٦١

(٢٨) المرجع السابق والجزء ٢٢ ·

تيار الخروج ما حدث إبان ثورة السودان من أهل المدينة بالرغم من مقدمات الثورة التى يفهم منها مدى الظلم الفاحش الذى مارسه جند الخلافة العباسية على الأهالى وعامة الناس من صناع وتجار وأرباب حرف على مختلف صورهم وأشكالهم ، حيث امتنع هؤلاء الجنود عن دفع قيمة مشترياتهم بعد الحصول عليها من النجار بل واعتدوا على من يطالب بحقه مما كان سببا فى تفجير هذه الثورة بالمدينة، إلا أن الظروف العامة المحيطة قصبت أظافر المشاركة الشعبية وأخمدتها والتى كان من أهمها الممارسات السيئة التى عامل بها المنصور أهل المدينة بعد ثورة النفس الزكية ، سواء كانت هذه الممارسات اقتصادية أو سياسية أو اجتماعية ، ما يعنينا أن أهل المدينة نعموا الدرس واستوعبوه ولم يكونوا فى افاقوا منه بعد فكيف يقدموا على مثل هذه المشاركة فى ذلك التوقيت السيء بالذات ، فعملوا على أن يقفوا موقفا حازما من هذه الحركة بل وعملوا على مقاومتها بأنفسهم اذا لزم الأمر ، حتى ان أحد زعماء المدينة (٢٩) أبى فك حديده بعد إخراج السودان له من السجن وعندما عرض ألإمامة رفضها حتى لا يفهم من إمامته للصلاة قيادته للحركة ومسئوليته عنها ، ولذلك نراه يعلن فى خطبته براءته من هذه الحركة وعدم مسئوليته عنها بل ودعا لطاعة المنصور وإقرار بيعته وحذر من الفتنة (٣٠) ومما قاله فى خطبته (٣١) : « أنشدكم الله

---

(٢٩) اسمه أبا بكر بن أبى سبرة وكان فى السجن عقابا له على مشاركته فى ثورة النفس الزكية أثناء ثورة السودان . ابن الأثير : الكامل جـ ٥ ص ١٣ .

(٣٠) البلاذرى : انساب الأشراف جـ ٣ ص ١٢٠

(٣١) ابن الأثير : الكامل جـ ٥ ص ١٣ .

وهذه البلية التى وقعت فوالله ان ثبتت علينـــا عند أمير المؤمنين بعد الفعلة الأولى انه لهلاك البلد واهله » وأعتقد أن هذه العبارات على الرغم من قلتها الا أنها فلسفة الأمر كله وتختصر الكثير من الأحداث والمواقف التى تبين بوضـوح كيف تدهورت طبيعة أهل المدينة بالنسبة لقضية مشـاركه الخارجين وخلق رأى عام شعبى يؤازرهم وينتفض لهـــم ويضحى معهم ليكونا فى النهاية أصحاب مصير واحـــد اشتركا فى الدم ويرغبا فى الثأر ٠

وفى بحثى عن فكرة تدرج أو تدهور العلاقة العـــامة والتوجه الشعبى بين شعب المدينة وحركات الخـــارجين تقابلنا ثورة الحسين صاحب فخ والتى شهدت هى الأخرى موقفا شعبيا يستحق أن يذكر ، إذ انه يسجل عليه أنه امتنع تماما عن المشاركة ، ليس هذا فحسب بل انه قاوم هـــذه الحركة قدر استطاعته وحاول إيقاف مسيرتها وها هو الطبرى يسجل مدى الإحجام الشعبى عن المشاركة والرفض الشعبى لها ونستطيع أن نرجع للنصوص لنبين منها هذه المواقف ٠

ففى أول ظهور الحركة يذكر الطبرى (٣٢) : « أن أتباع الحسين استطاعوا أن يقتحموا مسجد المدينة ويؤذنوا للصبح بعد أن جلس الحسين على منبر المدينة وقد اكتسى بعمـــامة بيضاء وجعل الناس يأتون المسجد فإذا رأوهم رجعـــوا ولا يصلون » ٠

---

(٣٢) تاريخ الأمم والملوك جـ ٦ ص ٤١١ ٠

ويبدو فى حديث الطبرى الإحجام وعدم المشاركة حتى أن الناس امتنعت عن أداء صلاة الجماعة فى المسجد نظرا لتواجد الحركة وقيادتها فيه .

ويقول فى موضع آخر (٣٣) : « فلما خرجوا من المدينة عاد المؤذنون فأذنوا وعاد الناس الى المسجد » .

وهذا النص يبين كيف فقد المسجد فى ظل هذه الحركة دوره الدينى بين جموع الشعب ولا اريد أن أقول أن حركة الحسين كانت مهملة للمنظور الدينى بين أبناء الحركة او بين جموع المسلمين ولكنى أريد أن أقول أن هذا النص ذو دلالة كبيرة فى التأكيد على مدى الإحجام الشعبى عن المشاركة فى الحركة والبعد المطلق عنها حتى فى الأمور التى تبدو المشاركة فيها من الأمور البدهية والطبيعية ولا يمكن أن نتفهم أمنيا (خاصة فى تلك العصور) على أنها نوع من المشاركة السياسية أو الفكرية مع الحركة ولا يخفى أنى اقصد بالطبع الأذان والصلاة وغيرهما من شعائر العبادة فى مسجد المدينة .

ويقول الطبرى (٣٤) فى موضع آخر شارحا موقف الإحجام الشعبى فى بداية هذه الحركة « وتفرق الناس وقد اغلق أهل المدينة عليهم أبوابهم » فما كان من هذه الجموع

---

(٣٣) نفس المرجع والجزء ص ٤١٣ .
(٣٤) نفس المرجع والجزء ص ٤١٢ .

إلا أن رفضت المشاركة وتركت الحسين وأصحابه فى المسجد ومن ثم فقد أبحت هذه الجماهير سعادتها البالغة يوم أن قرر الحسين وأصحابه التوجه لمكة تاركين المدينة فقاموا بتنظيف المسجد مما فيه وجعلوا يدعون عليهم ٠

ويذكر أن حسينا لما انتهى الى السوق متوجها الى مكة التفت لأهل المدينه وقال : « لا خلف الله عليكم بخير ٠ فقال الناس واهل السوق) « لا بل أنت لا خلف الله عليك بخير ولا ردك » (٣٥) ٠ وهى كلمات إن دلت فإنما تدل على مدى كره اهل المدينة لهذه الحركة والقائمين عليها ومدى رفضهم لها حتى انهم تمنوا هلاك أصحابها وعدم عودتهم مرة اخرى ولا يغيب عن النظر تركيز الطبرى فى روايته على لفظتى الناس وأهل السوق فى خطاب الحسين مع جماهير المدينة وهما كلمتان لهما أهميتهما عندما يصدران من مؤرخ كالطبرى حيث تؤكد هاتان الكلمتان ان مفهوم ذلك البحث الدائر عن مواقف الشعوب إزاء مختلف حركات الخارجين وتنوع أو تباين هذه المواقف تبعا لتباين الظروف والأحداث السابقة والحالية بما تحويه من خلفيات اجتماعية واقتصادية وسياسية ٠

ولا أريد أن أترك موضوع المعارضة الشعبية إبان ثورة الحسين صاحب فخ ومدى الإحجام عنها دون التعرض لقضية

---

(٣٥) الطبرى : تاريخ الامم والملوك ج ٦ ص ٤١٣ ٠

هامة وخطيرة اغفلها المعلقون والكتاب على الرغم من اهتمام المصادر القديمة بها وذكرهم إياها ألا وهى ما فعله الحسين لتعويض نقص بل انعدام المعونة الشعبية والتأييد الجماهيرى لثورته بإعلانه عن تحرير العبيد ، معلنا أن أى عبد يلتحق بمعسكره بغرض المشاركة فى الثورة فهو حر (٣٦) وهى حيلة غريبة وجديدة ولكنها غير شرعية ، والأهم من ذلك كله هو أنها أتت بنتائج عكسية عليه وعلى ثورته إذ أهاج هذا التصرف ملاك العبيد واعتبروا هذا التصرف بمثابة إسقاط مال حافظ عليه الاسلام وامن حرمته مما أثار هؤلاء الملاك فكانوا عونا للدولة وحجر عثرة فى طريق الثورة مما عجل بنهايتها

---

(٣٦) نفس المرجع والجزء والصفحة .

المحـــور الاجتماعى :

من بين المحاور التى يمكن أن نتطلع منهـــا على مواقف الشعوب وتباين انتماءاتهم وتبعيتهم فى الصراع الحاد بين قوتى الخارجين والدولة · المحور الاجتماعى

وإن كنت أستشعر أن هذا المحور يرتبط كثيرا بالمحور العقائدى ، ذلك لأن الإيمان بعقيدة معينة لابد وأن يتبعـــه الالتزام بالمضمون العام لأسس فكر وأيدلوجية الفـــرقة من جميع جوانبها ، ومن بين هذه الجـــوانب الجـــانب الاجتماعى ·

وأول هذه الجوانب الاجتماعية أمور الزواج والطـــلاق وخلافه ، فقد شهد هذا العصر صورة جديدة وغريبـــــة على المجتمع الاسلامى ، حيث بدأت التبعيات الفكرية تلعب دورها فى أمر المناكحات سواء ما هو موجود منها بالفعـــل أو ما يستحدث منها لقيام أسر جديدة ، وهذا معناه أن المجتمـع العباسى فى ظل هذا الصراع الذى احتدم بين الخـــارجين والدولة لم يكتف بأن يأخذ الصراع شكله التقليـــدى فى المجابهات العسكرية والانتماءات الفكرية ولكنه طور هـــذا الصراع ليأخذ بعدا اجتماعيا جديدا ·

فبدأ يسأل عن حكم ارتباط بناتهم بأبناء هذه التيارات

وهل يجيز الاسلام لهم أن يربطوا بناتهم بعلاقات الزواج من أبناء هذه التيارات ولجأوا للفتوى الدينية لحل هذه المشكلة وكان رأى الامام مالك قاطعا عندما سئل عن حكم تزويج القدرى بقوله :

« ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم » (١)

وهذا معناه أن الفقه السنى رفض عملية القران الفكرى وأصر على وضوح الرؤية للأجيال المتعاقبة ٠

على أن فهم باقى الفرق لفتوى الإمام مالك هذه كان مختلفا حيث اعتبروا موقف الفقه السنى هذا نوع من الاستئثار لاستبقاء التبعية والغلبة الاجتماعية له ومن ثم فقد كان رد فعل بعض هذه الفرق حادا ومتطرفا فقد رفض فقه الخوارج مناكحات المجتمع العباسى واعتبروا أن إقامة أى علاقة جديدة للزواج مع المجتمع بل وبقاء أى علاقة قديمة فى ظل فكر الخوارج لابد وأن تقوم على أساس البراءة من الإمامين عثمان وعلى رضى الله عنهما (٢)

ليس هذا فحسب بل ان مجتمع الخوارج رفض إقامة أى نوع من أنواع العلاقة مع المجتمع العباسى ٠

---

(١) الأصفهانى : الحافظ أبو نعيم أحمد بن عبد الله ت ٤٣٠ هـ ٠ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء جـ ٦ ص ٣٢٦ ـ بيروت ٠

(٢) الشهرستانى : أبو الفتح محمد بن عبد الكريم ت ٥٤٨ هـ ٠ الملل والنحل جـ ١ ص ١١٥ تحقيق عبد العزيز محمد الوكيل ٠ الحلبى ٠ مصر ٠

فقد رفض طعام ذلك المجتمع والتوارث معه واعتبـــــر أرضه أرض كفر ٠

بل وطلب المجتمع الاسلامى كله بالاستتابة من فكره قبل أن يقيم أى نوع من أنواع العلاقة بأبنـــــاء هـذه التيـــارات ٠

وبالمثل فإن الموقف الشعبى من فكر الخوارج كان قاسيا ولم يقف مكتوف الأيدى أمام هذه الأفكار التى يمكن أن تحيل الحياة لاجتماعية فى ظل المجتمع الاسلامى لنوع فريد من الصراع الاجتماعى ومن ثم فقد رفض المجتمع مناكحات الخـــوارج وتتبع زيجات بناته وأولاده وأبطل ما تم منها أو ما ثبت فيها تمذهب أى من طرفى الزواج بهذا الذهب وفى هذا تحـــركت القبائل العربية وصولا للرشيد ليأمر بطلاق احدى بناتهـم وقد ارتبطت بمن يحمل فكر الخوارج (٣) وقد كان ٠

وتأثرت الحياة الاجتماعية فى بغداد إبان محنة القول بخلق القرآن ايما تأثر ووقف قضاة الدولة من هذه القضية موقفا غريبا ، حيث عمدوا الى الحكم بالطلاق والتفرقة بين كل زوجين لا يحمل أحدهما فكر القول بخلق القرآن بنـــاء على أوامر الدولة (٤) ٠

---

(٣) عمر فروخ : تاريخ الأدب العربى ٠ الأعصر العباسية ٠ الأدب المحدث الى آخر القـــرن الرابع الهجـــرى (١٣٢ ـ ٣٩٩) هـ ط/٤ بيروت ص ١٨٢ ٠

(٤) ترجمة الامام احمد بن حنبل : نقـــلا ء نتاريخ الاســـلام للذهبى ص ٥١ ٠

وأقبل المجتمع العباسى على التعليم والأخذ من المناهل الصافية لبيوت أئمة الفرق حتى من النساء منهم ٠

فقد كانت السيدة نفيسة (٥) صالحة ورعة تقية تحفظ القرآن عالمة بالتفسير وبعض الحديث وتلقى عنها الجميع ومن أهم من تلقى عنها الامام الشافعى نفسه ٠

على أن المرأة فى المجتمع الشيعى نراها قد شاركت فى كل الأحـــداث التى لاحقت الشـــيعة ولم تقف مكتوفة الأيـدى ٠

فقد كن يسمعن شعر السيد الحميرى فى شعراء الشيعة من خف حجاب وكان يسمع صـــوتهن ونحيبهن (٦) حتى التحركات العسكرية شاركت فيها المرأة من البيت الشيعى حيث خرجت اخت الحسين صاحب فخ معه وصيرت عنـد زينب بنت سليمان لما قتل (٧) ٠

كما خرجتا ابنة محمد النفس الزكية ، وأخته لعيسى بن

---

(٥) نفيســـة بنت الحسن بن زيد العلوى صاحبة المشـهد المعروف بمصر تزوجت من اسحاق المؤتمن بن جعفر الصادق ماتت بالقاهـــرة ٢٠٨ هـ ٠ الزركلى : خير الدين : الاعلام وقاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين جـ ٩ ص ١٦ ـ ط/٣ بيروت ٠

(٦) د : شوقى ضيف : تاريخ الأدب العربى ص ٣١٤ ٠

(٧) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك جـ ٦ ص ٤١٢ ٠

موسى بعد مقتل محمد بطالبان بجثته حتى يأذن لهمـــــا في دفنـــــــه (٨) ٠

أما فى مجتمع الزنادقة فقد عمل ذلك المجتمع ـ بنـــاء على أفكاره ـ على تقعيد دور المرأة الاجتماعى والأسرى بصورة تتمشى وطبيعة الأفكار التى تنادى بها فرقة الزنادقة ٠ ورأينا أن المرأة فى المجتمع الزندقى تتقبل نداء الحـــركة وتلبى طلباته فسايرت الدور المرسوم لها بكل قيمه وأفكاره الهابطة والذى جعلها مباحة لكل يد كالماء والهواء بلا أى ضـــوابط فحملت المرأة من والدها وعاشرته معـــاشرة الأزواج (٩) وتغلغلت المرأة فى المجتمع الزندقى فى كل جلساته لتشـــيع جوا من المتعة والاســـتماع (١٠) ٠

اما فى مجتمع الخوارج فقد لبت المرأة نداء الفرقة متمثلة بكل قيمها وأفكارها حتى فى ضروب الشجاعة والإقدام فقـــد حملت السلاح منذ صغرها وتعلمت فنون القتال ومن ثم فقد كانت لها مواقفها العسكرية مثل الجديعاء امرأة أبى حمـــزة الخارجى (١١) والفارغة بنت طريف أخت الوليـــــد بن طريف الخـــارجى ٠

---

(٨) ابن الأثـــيـــر : جـ ٥ ص ١١ ٠
(٩) الطبـــــرى : جـ ٦ ص ٤٣٤ ٠
(١٠) الأطرقجى : د/رمزية : الحياة الاجتماعية فى بغـــداد منذ نشأتها حتى نهاية العصر العباسى الأول ص ٣٣٨ ط/١
(١١) معروف : د/نايف محمود : ديوان الخوارج ص ٣٧ ط/١ بيروت ١٩٨٣ م ٠

وانتصرت المرأة فى سبيل الفرقة وفكر الفرقة حتى على طبيعتها وأنوثتها فامتنعن عن معاشرة الأزواج وكرهن البقاء تحت أفخاذ الرجـــال فى الوقت الذى تحتاج فيه الفـرقة للكثير من الأبنـــاء (١٢) .

ويذكر فى هذا زوجة بن ملجم (قاتل الامام على رضى الله عنه) التى اشترطت عليه أن يكون مهرها قتل الامام على وبعد معاشرتها لفترة ذكرته بوعده لها قائلة له : « لشد ما أحببت أهلك » (١٣) .

ولما كان فكر الشيعة الاجتماعى والسياسى يقوم على الشيعة لأحد أفرع قريش بل مختصا بأبناء بنت معينـــة الا وهى الســـيدة فاطمة .

كما كان فكر أهل الحديث يدعو لسيادة طبقة قريش على باقى القبائل العربية ومن ثم تصير لهم الريادة والســـيادة السياسية والاجتماعيـــة .

فقد كان فكر الخوارج بلا شك يعد طفرة جديدة وتطورا خطيرا فى الفكر الاجتماعى والسياسى للفرق يوم أن نادوا

---

(١٢) معروف : د/نايف محمود : ديوان الخوارج ص ٢٧ ط/١بيروت ١٩٨٣ م

(١٣) الشهرستانى : الملل والنحل جـ ١ ص ١٢١ .

باهمال فكرة قرشية الامام ، ولا يخفى أن الدعوة لمثل هده الفكرة فى المجتمع الاسلامى لابد أن تجد آذانا صاغية وعقولا متفتحة حارت فى فهم وهضم فكرة قرشية الامام والتعرف على فلسفتها من وجهة النظر الاسلامية (١٤) ٠

---

(١٤) يرجع لمقدمة ابن خلدون لتفسير الحكمة الاجتماعية من قرشية الامام فى تلك الفترة ٠

المحور المكانى أو الجغرافى :

من بين المحاور التى يمكن أن ترقب منها أو من خلالها مواقف الشعوب تجاه صراع الخارجين والدولة المحور المكانى أو الجغرافى ٠

وأقصد بهذا ذلك الارتباط وهذه التبعية التى صارت تربط كل تيار من تيارات الخروج بمكان معين أو قطـــــر معين بحيث صار ذكر هذا التيار لا يتم الا وقد ارتبط به ذلك المكان الذى اصبح جزءا منه لا ينفك عنه كما أصبح ذلك المكان لا يذكر الا وتبع ذلك الاشارة لتبعيته لفرقة معينـــة او تيار معين وأصبح الارتباط بين المكان والتيار أو الفرقة وثيقا يشبه ارتباط الأرحام ٠

وحقيقة فإن تبعية المكان وساكنيه لفرقة معينة تبـــدأ بظهور هذه الفرقة واحتضان المكان وأهله لأبنائها الذين هم غالبا أبناء ذلك المكان ومن ثم يتشرب المجتمع فى تلك البقعة هذه الأفكار وتصير جزءا من مكونات حياتيه الأيدلوجية ٠

ثم يحدث أن تصطدم تلك الفرقة بالدولة بصـــــورة أو بأخرى أو حتى بغيرها من الفرق وهنا تحدث عمليـــــة التفاعل والمشاركة وتنصهر المشاعر والأحاسيس بين المكان والفرقة ، إذ يشارك أهل المكان فى تلك الأحداث فيصـــابوا

بالأذى وقد يتعرضوا للاضطهاد السياسى والاقتصـــــادى، ويتكون فى النهاية ما يصح أن نطلق عليه مشاركة المصـدر الواحد بين ذلك المكان وتلك الفرقة مما يكون له أثره فى خلق روابط الدم والثأر التى لا تنفك أبدا ٠

وبداية تصادفنا مقولة القادة العباسيين للدعاة الذين وجهوهم للأمصار ، حيث ذكروا لهم أن « البصرة وسـوادها قد غلب عليها عثمان وصنائع عثمان فليس بها من الشـيعة العباسية الا النذر واليسير ، أما الكوفة وسوادها فقـــد غلب عليها « على » وشيعته وليس بها من شـــيعتهـــا الا القليل ٠

وأما الشام فشيعة بنى مروان وآل أبى سفيان ، أما الجزيرة فحرورية شـــــارية مارقة ولكن عليكم بهـــذا المشـــــرق » (١) ٠

وحقيقة فإنها كلمات قليلة الا أنها تعد منهاجا وفلسـفة للجغرافيا السياسية وتاريخ الحركات وارتباطاتهـــــا القطرية أو المكانية ٠

وفى رأيى أن ثورة يكون قوادها على هذا الفكر والعقلية السياسية لابد وأن تكلل بالنجاح ، لأنها سوف تلقى بذورا

---

(١) ابن قتيبة : أبو محمد عبد الله بن مسلم ت ٢٧٦ هـ : عيون الأخبار جـ ١ ص ٢٠٤ القاهرة ١٩٢٥ م ٠

فى أرض صالحة ومن ثم فإن هذه البذور لابد وأن تثمر ٠

واذا أخذنا الشيعة كمثال سنجد أن التشيع ارتبط مكانيا وجغرافيا بأماكن معينة ، فالكوفة مهد التشيع ولا خلاف (٢) فى حبها لآل البيت ٠ ومن ثم فإنها أفرزت مجتمعا متشيعا قلبا وقالبا ٠

وأعتقد ان ما يقال عن المجتمع الكوفى يمكن أن يقال عن مجتمع البصرة وان كانت البصرة قد اتهمت بالميل للامويين ، الا أن الواقع يكذب هذه الدعوى بل يؤكد فكره تشيع المجتمع البصرى وإلا ما أشار شيخ أهل الشام على المنصور بشحن البصرة بالجند عندما سمع بخبر خروج محمد النفس الزكية بالمدينة فهو يعلم أن المجتمع المدنى وإن كان من الممكن أن يحتضن ثورة شيعية إلا أن الامتدادالطبيعى والتواجد الحقيقى تبعا للتبعية المكانية والتوزيع الجغرافى والسياسى يكمن فى البصرة ٠

وحقيقة فإن زعامات الشيعة الواعية كانت على دراية بهذا التوزيع ويبدو هذا فى كلام جعفر الصادق وهو يرد على عبد الله بن الحسن عندما أخبره بأن هناك رسالة من شيعتهم فى خراسان تدعوهم للخروج وتضمن لهم النصرة حيث قال له جعفر الصادق : « ومتى صار أهل خراسان شيعتك » (٣)

---

(٢) البلاذرى : انساب واشراف ج ٣ ص ٨٧ ٠

(٣) ابن طباطبا : محمد بن على المعروف بابن الطقطقى : الفخرى

وهى كلمات تعد وبصدق منهاجا يوضح مدى الارتباط بين حركات الخارجين والأرضية الجغرافية للأتبـــــاع أو التوزيع السكانى لهم إذا صح التعبير ٠

فقد كان جعفر الصادق يعلم أين هى الأرضيةالجغرافية التى يمكن للشيعة ان يكون لها تواجد بشرى وشعبى فيها ٠

ومن ثم فإن خراســـان لم تكن أبدا فى يوم من الايام ارضية مكانيه للتجمعات الشيعية وتكون اى رســـــاله او أى دعوة من هذه الأرض للثورة ٠ والخروج مع الوعد بالنصرة من قبيل الأباطيل والخيالات أو الحيل والمؤامرات ٠ خاصة إذا عرفنا أن جعفر الصادق أتته رســـالة مثل التى وصلت عبد الله بن الحسن فيها نفس المضمون فما كان منه إلا أن احرقها أمام الرسول التى أتى بها ٠

على أننا يمكننا أن نلاحظ بعض التصرفات الأخـــرى من بعض القيادات الشيعية والتى تتسم بعدم الفهم لطبيعة العلاقة بين التقسيم الجغرافى للمجتمع والولاء الســـياسى للفرق ويبدو هذا واضحا فى تصرف محمد النفس الزكيـــة قبل القيام بثورته فى المدينة ، حيث أرسل ابنه عليا لمصر

فى الأداب السلطانية ص ١٢٣ الحلبى ٠ مصر ٠ والقصة باختصار ان ابا سلمة الخلال كان على وشك تحويل توجه الثورة من العباسيين للشيعة بأن راسل قيادات الشيعة بالتتابع طامعا فى أن يأتى منهـــــم من يأتى لتولى زمام الثورة قبل اعلان اسقاط الدولة الأموية وتحويل الأمر نهائيا للعباســـيين ٠

للدعوة الى الثورة وتهيئة الجو العام فيها والسـؤال الذى يمكن أن يطرح ، هو هل كان للشيعة فى مصر فى تلك الفترة تواجد شعبى يمكن ان تستند عليه هذه الدعوة ؟ والواضح أن شيئا من هذا لم يكن بدليل أن عليا ما لبث أن قبض عليه وأرسل للمنصور مما يؤكد ن دعوى إرسال « على » لمصر كان تصرفا عشوائيا أكثر منه تصرفا مدروسا معروف العواقب والنتائج · وكذلك كان توجه الشيعة للمعايشة فى منطقة السند وإن كان قد تم فى ظل معاهدة مع ملك السند (٤) إلا أنه كان تصرفا خاطئا وينبىء عن عدم فهم لأماكن التجمعات الشيعية الحقيقية وارتباطاتها المكانية ·

ولا يخف أن المعاهدة نمت أخبارها للمنصور وملوك الأطراف المجاورة مما كان سببا فى القضاء على التجمع الشيعى هناك وعلى ملك السند نفسه ·

ولا يشفع لزعامات حركات الشيعة فى تلك الفترة الاحتجاج بان زعيمى الشيعة محمد وابراهيم ابنى عبد الله ابن الحسن قد نزلا من بين ما نزلا أرض السند إبان فترة المطاردات العباسية لهم ومحاولات التخفى من قبلهم (٥) وكما قدمت فإن تعرف القيادات العاقلة الزكية لخطورة هذه النقطة دعاها لأن تحاول خلق ارتباطات جوهرية بين الفرقة والقوى الاقليمية ذات التأثير الهام والمؤثر فى الأحداث السياسية ·

---

(٤) ابن الأثير : الكامل جـ ٥ ص ٣١ ·
(٥) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك جـ ٦ ص ٢٤١ ·

من ذلك ما حدث من الامام على بن موسى الرضا حيث أكد ارتباط خراسان وبلاد فارس بالشيعة بقصة زواج الحسن والحسين ابنى الامام على ببنتين من بنات يزدجرد بن شهريار ملك الأعاجم (٦) ٠

والحقيقة أن الدولة هى الأخرى كانت على علم كامل ومتتبعة لكل صور التبعية والولاء التى تربط الاقاليم الجغرافية ببعض تيارات الخروج فى الدولة ٠ ومن ثم فنحن نرى المنصور يجثم على صدر الكوفة عندما يعلم بموعد اقتراب خروج ابراهيم بن عبد الله بن الحسن للثورة (٧) ٠

وهذا يؤكد معرفة الدولة بتوزيع الولاء الجغرافى مما دعا المنصور لأن يمسك بخطوط الإمداد الجغرافية التى يمكن أن تكون شريان تغذية رئيسى للثورة ، فليس من المعقول أن تسمع التجمعات الشعبية الشيعية فى الكوفة بثورة ابراهيم ولا تبادر بالتحرك لإمدادها والانخراط فى سلكها وتحركاتها ٠

ليس هذا فحسب بل ان الدولة كانت أكثر مكرا ودهاء عندما فكرت فى أن ترسل جندا لمحاربة حركة ابراهيم بن عبد الله بن الحسن من أهل الشام ، إذ لا يخفى أنهم سيكونون أكثر عنفا فى حربهم للشيعة لأنهم من قديم أعداء لهم (٨) ٠

---

(٦) البلاذرى : انساب الاشراف جـ ٣ ص ١٠٢ ، ١٠٣
(٧) البلاذرى : نفس المرجع والجزء ص ٨٧ ٠
(٨) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك جـ ٦ ص ٢٤٧ ٠

كذلك اتبعت الدولة مع الخوارج نفس الفكر حيث فكرت فى ان ترسل جندا يحاربهم من اهل الشام لنفس الأسباب السابقة ٠

وتبعا لنظرية تبعية المكان وولاء التجمعات والشعوب فإن الدولة لم تكن تقبل من خراسان والخراسانيين إلا الولاء المطلق الذى لا يشوبه اى نقصان ومن ثم نستطيع أن نفهم لماذا يحكم « قحطبة بن شبيب الطائى » بقتل الخراسانيين الذين فروا من أمام قوات الدولة العباسية إبان قيام الدولة تخوفا من صورة المستقبل على يد العباسيين ٠ فى الوقت الذى عفا فيه « شبيب » عن الشاميين وغيرهم (٩) ، إنها بالطبع قضية التبعية الجغرافية والولاء السكانى فلا يمكن أن تقبل الدولة العباسية أى خطة تقسيم جديدة لولاء المناطق والتجمعات السكانية تخسر فيها الدولة بعضا من الأراضى المعروفة بالتبعية السكانية لها ٠

---

(٩) ابن قتيبة : ابو محمد عبد الله بن مسلم ت ٢٧٦ المعارف ص ٢٧٠ تحقيق ثروت عكاشة دار المعارف ج ١ ص ٤ ٠

ثانيا : الأسباب التى ادت لتبنى الشعوب لهذه المواقف :

١ ـ المخلفات الاجتماعية للصراع ٠

٢ ـ المعاناه الاقتصـــادية ٠

(أ) سياسة التجويع ٠

(ب) المكوس والإتاوات ٠

(جـ) الحرب الاقتصادية ٠

١ ـ المخلفات الاجتماعية للصراع :

لا يخفى أن ظهور الخارجين فى جسم الدولة واصطدامهم بها وما ترتب على ذلك من محاولات الدولة للقضاء عليهم واستئصالهم استشعارا بخطورتهم الكامنة فى إمكانية تهديد كيان الدوله واستقرارها ثم إمكانية سقوطها ، لا يخفى ان هذا لابد وان ينتج مجموعة لا بأس بها من المخلفات الاجتماعية التى يمكن ان تملأ كل المجتمعات وأن تنساب بين مختلف الشعوب بحيث تصير هذه المخلفات عبرة وشاهد عيان لكل ذى نظار لما تنتجه تلك الحروب وهذه الصراعات وما تفرزه داخل طبقات المجتمع سواء رضى الناس بهذا أم أبوا ٠

وإذا كان قرار الفرد او القبيلة أو المجتمع لابد وأن تحكمه عدة عوامل على رأسها مجموعة المعايشات الحياتية اليومية وهى مملوءة بمخلفات وأشلاء صراع الخارجين مع الدولة ٠

فلابد وأن يتأثر هذا القرار برؤية هذه المخلفات مما يكون سببا فى الإحجام عن المشاركة أو التخوف منها ٠

ونستطيع أن نلقى الضوء سريعا على أهم هذه المخلفات الاجتماعية التى ملأت ذلك العصر وكان من أهمها : آلاف القتلى الذين سقطوا كضحايا طبيعيين لمثل هذه الصراعات العسكرية التى تقع بين الدولة والخارجين ٠

على أن ضحايا هذه الصراعات شـــملت جند الدولة والخارجين بل الأهم من ذلك تلك القيادات العسكرية الفذة التى سقطت كضحايا لهذه الصراعات ٠

والراجع للطبرى سيثيره عدد القتلى من الجنـــود والقواد ، فكم سقط من قواد الدولة إبان الصراع مع الشيعة والزط والمقنع وبابك الخرمى والخوارج ـ خاصة فى الشمال الأفريقى ـ وغير هؤلاء كثير ٠

وعلى الجانب الاخر فقد فقد الخارجون ايضا اعـــدادا لا بأس بها من الأتباع والكثير من القيادات العسكريه التى كانت فى أمس الحاجه إليها وهى فى صراعها مع الدولة ، ومع التسليم بأهمية ما سبق إلا ان المنظور الاجتماعى الذى نحن بصدده الآن يعنيه أكثر ويهتم أكثر بالكيانات الاسريه التى تفقد عائلها وتصير بلا عائل فى دوامة الحياة ومن ثم تكون مطمعا لكل طامع وراغب وعليهم ان يهيموا على وجوههم بحثا عن المورد المادى او الامان النفسى الذى فقدوه بغيـــاب عائلهم ورجلهم ٠

ونظرة لأحداث الموصل نعرف منها ما خلفته هذه الأحداث على الساحة الاجتماعية إبان صراع الموصل مع الدولة العباسية الوليدة من أسر لاقت القتل والتشريد بعد حزن طويل على قتلاها ولاقت فى النهاية نفس المصير (١) ٠

---

(١) الدبوجى : تاريخ الموصل جـ ١ ص ٥٩ ٠

وعاشت بلاد الشمال الأفريقى أســـوأ أيامها إبان فتن الخوارج فيها ومحاولات الدولة للقضاء عليهم خاصة وأن كلا الطرفين قد تفننن فى أساليب الحصار والاضطهاد العسكرى وكانت النتيجة أن دفعت جموع الناس فى هذه البلاد الثمن الباهظ من دماء أبنائها فى سبيل هذه الحروب (٢) .

ولا يمكننا ان نغفل تاثر النشء من أبناء الخـــارجين بظروف اسرته وانتمائهم الفكرى خاصة وأن ظروف الأسرة - نظرا لهذا الانتماء - ظروف صعبه وقاسيه فالأسرة تتنقل من أقصى البلاد لأقصاها إما بحثا عن مهرب (٣) ، أو تنفيـــذا لأوامر الدولة بالتنقل (٤) ومن ثم فقد حفظ الأطفـــال أدق الأحداث التى تمت إبان هذه الاصطدامات العسكرية ومدى تأثرهم هم وأسرهم بها بل ورووا أهم أحداث المدينة حتى محاولات الناس لصبغ الملابس بالسواد إظهارا لانتمائهـــم العباسى تخوفا من جيوش الدولة وإبعادا لتهمة الانتمـــاء لصفوف الخارجين (٥) عند خروج النفس الزكية .

وعاش النشأ فى بيوت الشيعة يجهل نسبه حتى يبلغ مبلغ الرجال تخوفا من الادلاء على والديه وأسرته أثنـــاء تحركه ولعبه دون أن يعلم فى الوقت الذى تقـــوم فيه كل

---

(٢) ابن كثير : عماد الدين ابو الفداء الدمشقى ت ٧٧٤ هـ . البداية والنهاية جـ ١٠ ص ١١٣ ط/١ بيروت ١٩٣٣ م .
(٣) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك جـ ٧ ص ٦٨ .
(٤) نفس المرجع جـ ٦ ص ٤٤٥ .
(٥) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك جـ ٦ ص ٢٤٨ .

تحركات الأسر الشيعية على السرية تخـــوفا من بطش الدولة (٦)

وانتقل الطفل البرمكى من أفخم درجات العز لأحقـــر صنوف المذلة والهوان فى أيام معدودة دون أن يعلم لماذا كانت هذه النقلة الخطيرة فى حياته ٠

وبعد أن كان يلاعب أبناء الأمراء من البيت العبـــاسى أصبح يلاعب أبناء العوام فى حوارى بغداد وغيرها وقـــد ارتدى الملابس الرثة على أجساد لم يخب منها بعد بياض وإشـــراق النعيـــم (٧) ٠

وعلى العموم فإن الحياة فى ظل هذه الظروف القلقـــة والغير مستقرة لا يمكن أن تنبت فى النهاية إنسانا سويا ٠ وفى الموصل ونظرا لانتشار القتل فى صفوف أبناء الخارجين رأينا سيدات الأشراف من البيوتات العربية يرتبطن بالموالى وكذا بناتهن بحثا عن الأمان الذى فقد وطلبا للاستقرار (٨)٠

وتعرضت أسر قيادات الخارجين لنوعية خاصـــة من

---

(٦) الآبى : أبو سعد منصور بن الحسين ت ٤٢١ هـ ٠ نثر الدر جـ ١ ص ٢٦٠ تحقيق محمد على قرنه الهيئة المصرية ١٩٨٠ م ٠

(٧) الجهشيارى : أبو عبد الله محمد بن عبدوس ت ٣٣١ هـ ٠ الوزراء والكتاب ص ٢٤١ تحقيق مصطفى السقا وآخرون ط/٢ الحلبى مصر - ١٩٨٠ م ٠

(٨) الديوجى : تاريخ الموصل جـ ١ ص ٦١

المعاملة ليس على يد الدولة فحسب بل من نفس قيـــــادات الحركة وأرباب بيوتها بعد سقوط واندحار الحركة أو قـرب سقوطها ، فالمقنع يأخذ أهل بيته جميعا ويقضى عليهم بطريقه او باخرى حتى لا يكونوا عرضـــــة للأسر أو القتـــــــل أو التنكيل من بعده ٠

ومن أشهر المخلفات الاجتماعية التى أفرزتها صراعات الدولة مع الخارجين والتى كانت سببا رئيسيا فى عوامل الإحجام والاقدام للأفراد والأسر والمجتمعات ككل على حـد سواء ٠ الأسرى فمن المعروف أن نجاح الخارجين المؤقت فى صراعهم مع الدولة كان يمكنهم من الامساك ببعض قيـادات الدولة ، كما أن سقوط الخارجين بعد ذلك كان يمكن الدولة من تتبع هؤلاء الخارجين فى كل مكان والحصول عليهم ومثم التصرف فيهم بالقتل أو الأسر حسب الحاجة لهذا الأسير (٩) ووصل الأمر بالدولة الى أنها قامت بأسر الأقارب والعمال والكتاب بل والأولاد (١٠) وإن كانت قد عفت عن بعض الأسرى لأسباب متنوعة كالحاجة إليهم (١١) أو لعلو مكانة هذا الأسير وما يمكن أن يحدثه من آثار عكسية قد تؤثر على أوضـــــاع منطقته (١٢) ٠

كما خلف صراع الدولة مع الخارجين كمية لا بأس بهـا

---

(٩) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك جـ ٧ ص ٤١٥ ٠
(١٠) ابن الأثير : الكامل جـ ٥ ص ١٧ ٠
(١١) المرجع الأسبق جـ ٦ ص ٤١٥ ٠
(١٢) المرجع الأسبق جـ ٥ ص ١٢ ٠

من السبى والذى كانت محصلة طبيعية لهذا الصراع • ولا يخفى أن تأثر المجتمع بأسره وأفراده وهو يرى كميـــات السبى التى وقعت فى يد الدولة نتيجة لهـــذا الصراع لابد سيكون له أثره فى خلق عوامل الإحجام والاقدام عند أخذ قرار المشاركة مع أى من الفريقين أو الاحجام التام •

وحقيقة فقد تنوعت مواقف الدولة تجاه قضية السبى من أسر الخارجين ومن ثم فإن الدولة لم تسب نســـــاء الخارجين الذين خرجوا تحت منظور دينى معين •مثل إنكار بعض تصرفات الدولة التى تتعارض مع أفكار وأحكام الشرع والدين • حيث رأينا المنصور عندما بعث « زياد بن صالح الخزاعى » لحرب « شريك بن عون الهمدانى » الذى خرج من أجل الدين وغيره لله • نصحه أن لا يقتل الرجال ولا يسبى النساء ، ومن ثم يرد السؤال هل كانت الدولة تسبى نســاء مسلمات خرج أزواجهن لأسباب أخرى سياسية أو غير ذلك•

الحقيقة أن الروايات الموجودة لا تدل على شىء من ذلك وإن وجدت بعض التصرفات والأقوال التى تحمـــــل روح المحاولة وذلك مثل محاولات الجند العباسيين فى الموصـــل لسبى بعض الحرائر وإن لم يتمكنوا من ذلك (١٢) وإن كانت هذه الأمور لا تنهض دليلا على سبى الخارجين الذين يدينون بالاسلام • ومن المعـــــروف أن الدولة قد سبيت أسر حركات

---

(١٢) الدبوجى : تاريخ الموصل جـ ١ ص ٦٠ •

الخرمية (١٤) والزط والقبط (١٥) والزنادقة وغير ذلك من الحركات التى لا تدين بالاسلام أصلا ٠

وتجدر الإشارة الى أن الخارجين من ذوى الأجنحة العسكرية ممن لا يدينون بفكر إسلامى معين لم يتورعوا عن سبى النساء المسلمات ويدخل فى نطاق ذلك الخارجين من أبناء الحركات الفارسية (١٦) ٠

هذا وقد خلف صراع الدولة مع الخارجين من بين ما خلف نوعية معينة من الجوار بعد أن أسهمت حركات الفجور فى تطوير فكر هؤلاء الجوارى وقدراتهن وثقافتهن مما يمكننا أن نقول أن الجارية دخلت الحياة السياسية فى ذلك العصر من أوسع أبوابه فقد تمكنت جارية من القضاء على « يعقوب بن داوود » (١٧) واتهم الجوارى بقتل الهادى وإن كان هذا قد تم بتوجيه من أمه بعد موقفه المخالف والرافض لها ولتدخلاتها السافرة فى شئون الدولة (١٨) ونصح الجاحظ الحكام باستخدام الجوارى لاختبار الأتباع ومدى صدقهم وحرصهم على حرمة بيوت الخلافة (١٩) ٠

---

(١٤) ابن الأثير : الكامل جـ ٥ ص ١٢٨ ٠
(١٥) د/قاسم عبده : أهل الذمة فى مصر فى العصور الوسطى ص ٤٤ ٠
(١٦) السيد سالم : العصر العباسى الأول ص ٨٨ ٠
(١٧) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ١١٦ ٠
(١٨) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك جـ ٦ ص ٤٢١
(١٩) الجاحظ : التاج فى أخلاق الملوك ص ١٠٠

وبذلك الدولة الغالى والرخيص فى سبيل اقتنائهم ومن ثم نراهم يملكن قلوب الخلفاء ويسيرون الكثير من الامور السياسية تبعا لأهوائهن (٢٠) . ولا يخفى أن صراع الدوله مع الخارجين أدى لاستخدام الجوارى فى الأمور السياسية واقصد بذلك أمور الجاسوسية وغيرها وكان البرامكة هم أساتذة هذا المجال بلا منازع (٢١) .

ونظرا لاحتدام الصراع بين الدولة والخارجين فقد بحث كل منهما عن التجمعات البشرية والتكتلات ذات الصفة العرقية أو الفكرية وأصبح اختلاف مثل هذه التكتلات أمرا طبيعيا ويبحث عنه كلا الجانبين وأصبحث هذه التكتلات من مخلفات الصراع ومن الأسباب التى تدعو المجتمعات والأسر لأخذ موقف واضح من الصراع فإما البعد عنه أو القرب منه والانحماج فيه ومن ثم فقد حدث تطور غير بسيط فى وضع الموالى إذ ارتفع قدرهم بصورة ملفتة للانظر وخاصة موالى العباسيين فأقطعوهم الاقطاعات الواسعة (٢٢) وولوهم الولايات وقربوهم من مجالس الحكم مما لفت نظر بعض أعضاء البيت العباسى أنفسهم فعرضوا قضية حب الموالى ومكانتهم فى قلوب العباسيين للمناقشة ولن كان البحث لم يصرح بذكر الحقيقة الجاثمة فى احتياج الدولة لهؤلاء الموالى وتكتلاتهم الخطيرة أو احتياج الموالى للتواجد

---

(٢٠) الطبرى : المرجع الأسبق جـ ٦ ص ٤٠٥ ، ٤٢١

(٢١) الدرمانينى : أزمنة التاريخ الاسلامى ص ٩٧٦ ، هوقى ضيف : الفن ومذاهبه فى الشعر ص ١٠٢

(٢٢) صالح العلى : بغداد مدينة السلام الجانب الغربى ص ٦٧ .

في تكتلات يعمل حسابها ويبحث عنها وانصب الحديث كله على أفكار ومظاهر بعيدة عن الواقع (٢٣) ٠

والحقيقة أن نفس هذه الظروف دعت الموالى لأن يجدوا لأنفسهم دورا ، وعليهم أن يكونوا فى الصورة فى ظل حياة يصعب العيش فيها بعيدا عن مثل هذه التكتلات ونستطيع أن نقرر أن اشتراك هذه التكتلات فى هذا الصراع كان بمحض إرادتها ورغبتها وبحثا عن مصلحتها الخاصة ٠

والحقيقة أن باقى الفرق وبالأخص الشيعة حرصت على موضوع الموالى هذا فقربتهم وارتبطت بهم برباط النسب على أن موالى الشيعة قد قبلوا هذه الصلات بالرغم من أنها سوف تجعلهم (٢٤) طرفا رئيسيا فى صراع الشيعة مع الدولة ٠

ومن بين المخلفات الاجتماعية ما انسـاب فى صلب المجتمعات فى تلك الفترة من مشاركة للذميين فى أعيادهم وإظهار أشكال الفرح والسرور بأعيادهم فرأينا العامة فى الكنائس تشاهد الاحتفالات الكنسية وتدعوا بعضها بعضا إليها (٢٥) ٠

ومن الثابت مشاهدة المأمون لبعض هذه الأعياد مع

---

(٢٣) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك جـ ٦ ص ٢٩٧ ٠
(٢٤) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك جـ ٦ ص ٤١١ ٠
(٢٥) الشابشتى : أبو الحسن على بن محمد ت ٣٨٨ هـ ٠ الديارات ٠ تحقيق كوركيس عواد ص ١٧٧ ط/٣ ـ ١٩٨٦ م ٠ بيروت ٠

مجاميع من العامة فى أحد الأديرة عندما وافق نزوله هذا الدير لعيد من أعيادهم أثناء رحلته للشام (٢٦) ٠

ويستتبع ذلك الاشارة لما أحدثته هذه الأديرة والكنائس من نشر روح المجون والرذيلة فى أوساط المجتمعات العباسية فى تلك الأديرة فهى أماكن واسعة مترامية الأطراف مليئة بالزراعات والأبنية المختلفة والغرف الخالية المهجورة كما انها تقدم أجود أنواع الخمور فى الوقت الذى حوت فيه الكثير من صور الجمال الطبيعى والجنس فى الوقت نفسه فهى أماكن منعزلة تحقق الأمان لطالبى الرذيلة وأريد أن أقول أن كتاب الديارات (٢٧) ملىء بذكر هذه الأشياء وما هو أكثر منها مما يعف القلم عن تسجيله ٠

---

(٢٦) نفس المرجع والجزء والصفحة ٠

(٢٧) الشابشتى : ص ٥٠ ، وما بعدها ٠ وغير ذلك من الصفحات الكثير ٠

٢ ـ المعاناة الاقتصادية :

عانت الشعوب أيما معاناة من صراع الدولة مع الخارجين وكانت المعاناة الاقتصادية من أظهر وأوضح صـــور هـــذه المعاناة ومن ثم فإن قرار هذه الشعوب بالدخول فى خضم هذه المعاناة لابد وأن يحكمه العامل الاقتصادى ٠

وبمعنى أوضح لابد وأن تحسب حساب الأرباح والخسائر فى حالة المشاركة وعدمها ٠

ولابد أن يتأثر قرار هذه المجتمعات والشعوب بالأساليب الاقتصادية التى عاملت بها الدولة أو الخارجين هـــــذه الشعوب والمجتمعات إبان صراعهما معا ٠

وحقيقة فإن الناظر لهذه الأساليب الاقتصـــادية التى عوملت بها الشعوب من قبل الدولة أو الخارجين على حـــد سواء سيجد أنها أساليب تنوعت بين سياسة التجويع أو الأتاوات أو الحرب الاقتصادية على مختلف أشـــكالها وإن كانت جميعها يمكن إدراجها تحت مسمى واحد ألا وهـــو المعـــاناة الاقتصـــادية ٠

(أ) سياسة التجـــــويع :

وبداية نستطيع أن نتحدث عن سياسة التجويع لنتبين كيف عانت الشعوب من هذه السياسة وكم كلفتها من قوتها وقوت أبنائها ومن ثم يتضح كيف تباينت مواقف الشعوب من صراع الدولة مع الخارجين ولم كان هذا التباين .

والشيء الذى يستحق التسجيل أن بدايات مثل هـــذا التصرف فى العصر الاسلامى الأول حيث قطع ثمامة بن أثال الحنفى ميرة اليمامة عن قريش عندما دخل الاسلام لم يعدها إلا بعد أن أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك (٢٨)

على أنه قد حدثت مواقف مشابهة فى العصرين الأموى والعبـــاسى فقد كان من بين أنواع الميرة التى منعت عن الحجاز ، والتى ذكرت معماة فى الكتب ميرة البحرين (٢٩) واليمامة (٣٠) على اعتبار أنهما من أقدم أنواع الميرة التى كانت تفد الحجاز بل ومن أهمها ، على أن ما ذكر يعد مثـــالا

---

(٢٨) د/عبد الله محمد السيف : الزراعة فى اليمامة فى العصر العباسى ص ٨١ مقالة مطبوعة فى الندوة العالمية الثالثة لتاريخ العلوم عند العرب . وموضوعها اسهامات العرب فى علم الفلاحة . الكويت قســـم التراث العربى ط/١ - ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

(٢٩) البحرين : اسم البلاد على ساحل بحر الهند بين البصرة وعمان قيل انها من أعمال العراق . ياقوت الحموى : معجم البلدان جـ ١ ص ٣٤٧

(٣٠) اليمامة : اختلف فى أصل الكلمة ومعناها . كان فتحها وقتل مسيلمة الكذاب عام ١٢ هـ . بين اليمامة والبحرين عشرة أيام . ياقوت معجم البلدان جـ ٥ ص ٤٤٢ .

واضحا لفكرة سياسة الجوع وكيف يمكن أن تكون فلسفة اقتصادية للدولة والخارجين فى فترات اصطدامها السياسى والعسكرى ٠

ومن أشهر أفكار سياسة الجوع العمل على توقف مطاحن المياة التى تعمل بواسطة تدفق مياه الأنهار وهى تعتمد على اثر المد والجزر فى عملها حيث برع فى ذلك أهل البصرة وأهل الموصل وكثير من مدة العراق (٣١) ، حيث يقوم أحد طرفى الصراع والراغب فى تنفيذ تلك السياسة بطمث هذه الأنهار وإغراق تلك السفن وهذه المطاحن ، لتمنع أهل البلدة من الحصول على أهم ناتج اقتصادى وهو الحقيق والزيوت ٠

وحقيقة فقد استخدم الخارجون فى الموصل أسلوب إغراق السفن والطواحين لتعطيل هذه الصناعات عند اشتداد الأزمات والاصطدامات السياسية والعسكرية (٣٢) مع الدولة ٠ كما قام طاهر بن الحسين إبان حصاره لبغداد بطمث بعض الأنهار انطلاقا من هذه السياسة أيضا ٠

وانطلاقا من تلك السياسة الاقتصادية نعرف سبب الاستيلاء على أموال الكثيرين من الوزراء والعمال والكتاب

---

(٣١) د/انور عبد العليم : الملاحة وعلوم البحار عند العرب ص ٨٥٣ تقوم الفكرة على استخدام ضغط تدفق المياه فى الأنهار لادارة تروس الدواليب التى تحرك المطاحن والتى تقوم بدورها بطحن الحبوب وعصر الزيوت ٠

(٣٢) الديوجى : تاريخ الموصل ج ١ ص ٢٢٥ ٠

والأطباء واستصفاء أموالهم (٣٣) كما كانت تحد من الأرزاق والعطاء بناء على سياسة معينة الفيصل فيها المواقف المتباينة من صراعها مع الخارجين ٠

وبناء على ما سبق نستطيع أن نفسر هذه المجاعات التى كانت تحدث فى ذلك العصر والتى تزامنت مع خروج الفرق . حيث يذهب بارتولد فى تفسيره لمجاعة خراسان فى عام ٢٠١هـ لثورات بلاد ما وراء النهر وعدم استقرارها خاصة بعد رحيل المأمون من خراسان لبغداد مما دعاهم لقطع إمداد خراسان بالغلال (٣٤) ٠

وأود أن أشير لبعض الروايات التى لم تأخذ حقها من الدراسة والتى يفهم منها ذلك الفهم وهو فكر سياسة التجويع فهناك محاولة أبى أيوب الموريانى لشراء طعام سوادى الكوفة والبصرة انتهازا لفرصة رخص الأسعار(٣٥)، وحقيقة فإن تصرف أبى أيوب هذا بالاضافة الى تصرفاته السياسية التى أودت به الى النهاية المعروفة يمكن أن تفسر على أنها محاولة استخدام فكر سياسة الجوع على سوادى البصرة والكوفة بعد الاستحواذ على طعامهما ، مما يكون سببا رئيسيا فى تذمر الرأى العام الشعبى وتحرك الجميع الثورة ٠

---

(٣٣) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك جـ ٦ ص ٤١٧ ٠
(٣٤) تركستان : ص ٣٣٤ ٠
(٣٥) فاروق عمر « الجذور التاريخية للوزارة العباسية » ص ٤١

واستخدم فكرة سياسة التجويع على نطاق واسع من طرفى القتال الرئيسيين إبان الفتنة بين الأمين والمأمون (٣٦) ٠

على ن غالبية الناس قد تأثرت بهذا الفكر ، إذ رأينا الكثيرين ممن يحملون فكرا عقديا أو سياسيا معينا يحاربون فى ارزقهم بل ويمنعون من تولى مناصب الدولة وعزلهم واول ما نلحظه هو أن ولاية مدن الخارجين أصبحت منوطة بمن لديهم القدرة على التلويح والارهاب بهذا الفكر ثم القدرة على استخدامه (٣٧) ٠

كما أصبحت الصلة بالبلاط العباسى والحصول على أموال الدولة منوطة بتولى الفكر السياسى للدولة وإلا أصبح التجويع هو النهاية المرتقبة (٣٨) ٠

على ن فترة فتنة القول بخلق القرآن كانت من أشهر الفترات التى اتبع فيها فكر سياسة التجويع لاقرار فكر عقدى معين تحمله فرقة معينة على جموع المسلمين ، ومن ثم فقد اقتصرت المناصب الرسمية فى الدولة على من يؤمن بهذا الفكر واصبحت الامتحانات تجرى وتعد ضمانا لعدم

---

(٣٦) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك جـ ٧ ص ٦١ ، ٦٣
(٣٧) البلاذرى : أنساب الأشراف جـ ٣ ص ١١٥
(٣٨) د/سلومة : شخصيات كتاب الأغانى ص ٢٥٦ ٠

تولى أى مسئول لوظيفة ما إلا وهو مؤمن بفكر المعتزلة (٣٩)، وإلا فالجوع له ولأسرته هو المصير المحتوم ، وبلغ الحال بالعلماء فى ظل سياسة التجويع هذه الى ترك مدنهم والهجرة منها مع أن كل حاجتهم اليومية لا تتطلب أكثر من بعض البـــاقلا (٤٠) ٠

(ب) المكوس والاتاوات :

من بين صور المعاناة الاقتصادية التى عانت منهـــا الشعوب والمجتمعات سياسة المكوس والاتاوات ٠

ولا يخفى أن مثل هذا النظام تضطر إليه الجمـــاعات المتحاربة ـ الدولة أو الخارجين ـ لتمويل نفسها خاصـــة عندما ينتقص من يدها التمويل اللازم لاستمرار هـــذه المعـــارك ٠

ولا يخفى أن من يدفع الثمن فى هذه اللحظة هم الشعوب من قوتهم وقوت أسرهم على أن الموسرين يصـــبحون فى الغالب عرضة أكثر من غيرهم لأساليب الابتزاز المختلفـــة

---

(٣٩) ابن الأثير : الكامل جـ ٥ ص ٢٢٢ ، أبو زهرة : تاريخ المذاهب الاســـلامية ص ٤٩٧ ٠

(٤٠) أبو بكر محمد بن الحسن : طبقات النحويين واللغويين ص ٥٥ الباقلا : نوع من الطعام فى البصرة ٠ دار المعارف مصر ٠

إبان الصراعات والمدن سواء من الدولة أو من الخـــارجين عليهـــا .

وإذا كان رأس المال جبانا بطبعه فلابد أن صاحبه سوف يكون له موقف من هذه الصراعات وسوف ينبع ذلك الموقف من حرصه على ماله وبحثه عن سبل الاستقرار والأمان خاصة لهذا المال . ومن ثم فإن الموسرين والقادرين من أى الطبقات سوف ينظرون للجبهه الأقوى والجهة الغـــالبة ليعلنوا انضامهم إليها وحتى لا يضيع منا الحديث عن ســـياسة المكوس والاتاوات التى طبقت فى ذلك العصر على مســـتوى واسع نستطيع أن نضرب لهذه السياسة عدة أمثلة من واقع الأحداث التاريخية إذ كلف الأمين أحد قواده بتتبع أموال الموسرين والقادرين من أصحاب الأموال واستقصائهـــا للدولة (٤١) . وقد قام ذلك القائد بتنفيذ هذه السياسة على خير ما يرام على أن الملفت للنظر هو موقف التجار وأصحاب رؤوس الأموال والذين غيروا مواقفهم تبعا لظروف الحرب والمصادمات بين الأخوين واستطاعوا أن يلعبوا مع الطـرف الغالب طوال فترة الصراع بحثا عن الأمان والاســـتقرار لأموالهم بغض النظر عن اعتقادهم الفكرى ولمن يكون !!

أما الخارجون فقد كانت سياسة فرض المكوس والاتاروات هذه سياسة معلنة وصريحة لهم ومصدرا من أهم مصادرهم الماليـــة .

---

(٤١) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك جـ ٧ ص ١٦ .

والعجيب أن حركة كحركة الخوارج بالرغم مما عرفت به من تعبد وصدق وما حواه منهجها العقدى من اعتبار الذنوب كلها كبائر وأن ليس فى الذنوب صغائر .

إلا أنهم لم يتورعوا عن هذه السياسة ، إذ نرى الفضل ابن سعيد بن مراد الخارجى يأخذ من أهل بأد ، وخلاط ، وارزن ما يقرب من مائة ألف أو يزيد (٤٢) .

وجبى الوليد بن طريف الاموال فى الجزيرة وارمينية(٤٣) وعند اندلاع حروب الخصومة القبلية بين عرب الشـــمال والجنوب اتبعت أساليب فرض الإتاوات على نطاق واسع وكان الخارجون من أصحاب حركات الصفريين والشـــطار أشهر من مارس هذا الأسلوب ونفذه كسياسة صريحة لجمع الأموال وتمويل الحركة ، إذ فرضوا الإتاوات صراحة على التجار والأسواق والموسرين (٤٤) .

واستطاعت نفس هذه الحركات إبان فتنـــة الامين والمأمون ان تجبى الكثير من الأموال بفرض المكوس والاتاوات على التجار والموسرين قسرا (٤٥) .

وفى أثناء هذه الفتنة عانى التجار أشد العناء من عملية

---

(٤٢) الديوجى :: تاريخ الموصل جـ ١ ص ٧٠ .
(٤٣) الطبرى : تاريخ لامم والملوك جـ ٦ ص ٤٦١ .
(٤٤) نفس المرجع جـ ٧ ص ١٣٦ .
(٤٥) نفس المرجع والجـــزء ص ١٣٧ .

فرض المكوس والاتاوات من الطرفين المتحـــــاربين إذ نرى المسيب بن زهير الضبى من قواد الأمين ـ يعشر اموال التجار صراحة اثناء الفتنة ، كما كان يراقب السفن الداخلة لبغداد عن طريق المنطقة التابعة له ويفرض عليها ، خاصة إذا كانت محملة بالبضائع ، إذ كان يفرض على هذه الســـفن ما يصل للألف والألفين بل والثـــــلاثة آلاف درهم (٤٦) فى بعض الأحيان حسب الحمولة ونوع التجارة • وعلى الجـــانب الآخر قامت قوات طاهر بن الحسين من قواد المأمون باتبـــاع نفس السياسة سواء مع التجار أو السفن (٤٧) •

وبعد هدوء الأوضاع واستتباب الأمن بعد صراع الأخوين الأمين والمأمون إذ بأحد الخارجين (٤٨) يخرج فى سفلة من الناس وجماعة كثيرة من الأعراب حتى أتى النيـــــل ففرض سياسة المكوس والاتاوات حتى انه انتهب القرى (٤٩) •

على أن اكبر حركة منظمة عاشت لفترات طويلة فى قلب الخلافة العباسية تجبى الأموال وتفرض الضرائب والمكوس كانت حركة الزط ، إذ استطاع الخارجون من أبناء هـــذه الحركة ان يقطعوا طريق البصرة ، وأن يفـــرضوا المكوس والاتاوات على السفن الداخلة لبغـــداد لفترات طويلة حتى

---

(٤٦) نفس المرجع والجزء ص ٤٩ •
(٤٧) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك جـ ٧ ص ٦٣ •
(٤٨) اسمه الحسن البرقى : خرج يدعو للرضا من آل محمد عام ١٩٨ هـ • وقتله ازهر بن زهير المسيب عام ١٩٩ هـ •
(٤٩) نفس المرجع جـ ٧ ص ١١٦ •

تمكن عجيف بن عنبسه من القضاء عليهم فى النهاية (٥٠) ٠

ومما تجدر الإشارة إليه أن عملية فرض المكـــــوس والاتاوات هذه كانت لها آثار اقتصادية سيئة على الشعوب والمجتمعات بل والدولة العباسية ذاتها ، إذ اختفت السلع وهرب التجار وغلت الأسعار الى غير ذلك من الآثار الاقتصادية الســـــــيئة ٠

وما حدث فى الموصل إبان حروبها مع الدولة خير مثـــال لذلك حيث كانت سياسة فرض المكوس والاتاوات على نطاق واسع فلم يجد أهل البلد بدا من مغادرتها والهروب منها مما كان سببا رئيسيا فى خرابهـــــا وتوقف أســـــواقهـــا وتجـــارتها (٥١) ٠

هذا وقد عانت الكنائس والأديرة المسيحية من المكوس المختلفة التى فرضت عليهـا من قبـل الدولة ٠ حيث شملت الحوانيت والخانات والحمامات والطواحين والمزروعـــات والبساتين مما نستطيع أن نفهم منه أنه سبيل من ســـبل ضرب قوى القيادات الكنسية حتى لا تفكر فى الخروج أو فى إعانة الخارجين من أبناء الحركات المسيحية ٠

---

(٥٠) نفس المرجع جـ ٧ ص ٢٢٤ ، ٢٢٥
(٥١) الديوجى : تاريخ الموصـــل جـ ١ ص ٧١ ٠

(جـ) الحرب الاقتصـــادية :

المتتبع لصراع الدولة مع الخارجين سوف يلفت نظره أن كلا الطرفين لم يكتفيا بالحرب العسكرية الدائرة بينهما وإنما حاولا أن تكون لهذه الحرب صورة أخرى غير الصـــور العسكرية وأقصد بهذه الصورة صورة الحرب الاقتصادية ٠

والغريب فى هذه الحرب أنها كانت تعتمد على جلب اكبر قدر مادى مستطاع للطرف المحارب فى الوقت الذى تعمـــل فيه على حرمان الطرف الآخر من كافة صور وأشكال العون الاقتصادى بل وحرمانه من اقتصادياته هو شـخصيا التى يمكن أن يعتمد عليها ٠

ما يعنينا أن الشعوب والمجتمعات قد تأثرت بهـــذه الحرب الاقتصادية بالطبع ولابد أن هذا انعكس على تبعياتها وارتباطاتها الفكرية والمذهبيـــة ســـواء مع الدولة أو الخارجين ٠

وأول صور الحرب الاقتصـــادية ما عاملت به الدولة الشيعية ، حيث حرمت الدولة العلويين من حقهـــم فى الفيء (٥٢) فى الوقت الذى ذهبت فيه آراء العلماء للقول(٥٣)

---

(٥٢) الأصبهانى : أبو الفرج على بن الحسين بن محمد بن أحمد الأموى ت ٣٥٦ هـ مقاتل الطالبيين ص ٢٣٠ النجف ١٣٥٣ هـ

(٥٣) الماوردى : محمـــد بن حبيب البصرى ت ٤٥٠ هـ الأحكام السلطانية والولايات الدينية ص ١٨٤ ط/١ مصر ١٩٨٣ ، السايس : الشيخ محمد على ٠ تفسير آيات الأحكام جـ ٣ ص ٨ مصر ١٩٥٣ م ٠

بأن سهم ذوى القربى لا يسقط لأنه مستحق لجماعتهم ومن الواجب فصله عن بيت المال ولا يكون للإمام رأى فيه .

على أن الذى لا خلاف عليه هو ان حرمان الشيعة من أموالهم هذه سوف يحرمهم من مورد هام من مواردهم المالية من الممكن ان يعينهم فى تحركاتهم وصراعاتهم التى لا تنتهى مع الدولة . خاصه وأن أمور تمويل الحركات من الامور الهامة لأن المال هو الذى سوف يجلب الأتباع ويخرج المعزلين عن عزلتهم ويدعوهم للمشاركة طمعا فى الربح المادى . كما أن نفس هذه الأموال - أموال الفىء - والتى احتفظت بها الدولة لنفسها بدلا من أن تكون قوة للعلويين سوف تكون قوة تضاف وتحسب لقوة الدولة .

ونستطيع أن نستشعر ملامح هذه الحرب فى بيع العلويين لبعض دورهم وممتلكاتهم إبان خروجهم ضد المنصور لعيسى بن موسى والذى بشر المنصور بشرائه لهذه الدور - على اعتبار انها دور أعدائهم - فما كان من المنصور إلا ان استوعب سريعا هذا التصرف من قبل العلويين وانزله منزله الصحيح النابع من فكر الحرب الاقتصادية ليعلن ان العلويين ما باعوها إلا ليخرجوا على الدولة بثمنها (٥٤) .

ونظرا لاستيعاب المنصور لفكر الحرب الاقتصادية فقد مارسه على نطاق واسع مع تلك المجتمعات التى شاركت فى

(٥٤) الأصبهانى : مقاتل الطالبيين ص ٢٥٦

الثورات وخاصة ثورات العلويين ، حيث هدم دور من خرج مع النفس الزكيه وأخوه ابراهيم كما عقر نخيلهم (٥٥) بل أنه عزم على تخريب المدينة وأن لا يدع بها نافع حزمه (٥٦) .

ونظرا لمعرفة المنصور بأسس الحرب الاقتصادية والتى تقوم على حرمان العدو من أى معطيات مادية فقد قام المنصور بقبض كل أموال الطالبيين بالمدينة (٥٧)حتى يحرم الشيعة من كل صور التأييد المادى اللازمة والمعينة فى جلب الأتباع وتمويل مواقف الأغلبية من أبناء المجتمعات على مختلف أشكالهم وذلك بالتلويح لهم بالعطاء المادى .

ونستطيع أن نفسر موقف تلك المجاعات التى اجتاحت البصرة (٥٨) بعد القضاء على حركة ابراهيم بن عبدالله من نفس المنظور السابق ألا وهو منظور الحرب الاقتصادية التى دارت مع الخارجين ومنهم .

وهكذا حوربت المدينة اقتصاديا على يد الدولة ، إذ أقفل البحر على أهل المدينة فلم يحمل للمدينة عن طريقه شىء طوال فترة المنصور ولم يأذن لهم فى الحمل عن طريق البحر إلا فى عصر المهدى (٥٩) .

---

(٥٥) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك جـ ١ ص ٢٥٢ ، الجاحظ : البيان والتبيين ٢/٢٨٢ .
(٥٦) الآبى : نثر الدر جـ ١ ص ٣٥١ .
(٥٧) الطبرى : المرجع الأسبق جـ ٦ ص ٢٠٥ .
(٥٨) الجاحظ : البيان والتبيين جـ ٢ ص ٩٣ .
(٥٩) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك جـ ٦ ص ٢٥٥ .

وردت الدولة على ثورات القبط فى مصر بنـــوع من الحرب الاقتصادية (٦٠) والتى وصلت آثارها لحد هجـــر الفلاحين لأرضهم ٠

وفى عصر الهادى اتبع والى المدينة مع الخـــارجين من العلويين واالمؤيدين لحركة الحســـين صاحب فخ نفس الأسـلوب إن عمد لدورهم وأموالهم فقبضها كمـــا أنه عقر نخلهم (٦١) ٠

ويلاحظ أن رحى تلك الحرب لم تتوقف عند ممارســات الدولة فقط ، بل امتدت لفرق الخارجين على مختلف أشكالهم فقد كان من أوائل التصرفات التى يقوم بها الخارجون بعد إعلان ثورتهم انتهابهم لبيت المال ، حـــدث ذلك إبان ثورة النفس الزكية (٦٢) وأخوه ابراهيم (٦٣) والحســـين ابن الأفطس وفى حركة أبو السرايا بالكوفة استولى الخارجون على أموال العباسيين وتتبعوها (٦٤) وكذلك تتبع زيد النار أموال العباسيين واستصفاها لنفسه ولم يبق منها شـــيئا حتى أنه كان يحرق ما تصل إليه يده من عقاراتهم وزراعاتهم حتى أطلق عليه لقب زيد النار ٠

---

(٦٠) الكندى : الولاة والقضاة ص ١١٩ ، ص ١٨٦ ٠

(٦١) الأصبهانى : مقاتل الطالبيين ص ٣٠٥ ـ يلاحظ أنه شـــيعى فلا يعتمد عليه فى قضايا العلويين ٠

(٦٢) ابن الأثيـــر) : الكامل جـ ٥ ص ١٧ ٠

(٦٣) المرجع السابق ص ٧٥ ، الطبـــرى : تاريخ الأمم والملوك جـ ٦ ص ٤١٣ ٠

(٦٤) الطبرى : المرجع الســـابق جـ ٧ ص ١١٩ ٠

واستطاع الخارجون أن يستولوا على إمكانات نفس البلاد التى خرجوا منها كابراهيم بن عبد الله بن الحسن(٦٥) ونلزط ، حيث استغلوا منطقة ظهورهم فنهبوا الطريقين البرى والبحرى (٦٦) .

ولا يخفى أن ظهور الخارجين فى أى منطقة من مناطق الحضر كان يمكنهم من الاستيلاء على كميات هائلة من الطعام والعلف والخيول والأسلحة من الأشياء التابعة للدولة والمعدة لأجل استخدامها عند الحاجة اليها .

واستطاع الوليد بن طريف الشارى أن يحصل على كثير من الأموال عن طريق ضرب الحصار على المدن حتى تستسلم فيرفع عنها الحصار نظير أموال معينة (٦٧) ، مما مثل معاناة ضخمة وقاسية على شعوب وأهالى هذه المدن .

---

(٦٥) البلاذرى : أنساب الأشراف جـ ٣ ص ١٢٧ .
(٦٦) الخضرى : محاضرات تاريخ الأمم ص ١٩٥ .
(٦٧) ابن الأثير : الكامل جـ ٥ ص ٩٧ .